الأُسْتَاذُ الأَعْظَمُ

الفَقِيهُ المقدّم

مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث

الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ — ٢٠٠٣ م

سلسلة أعلام حضرموت ٥

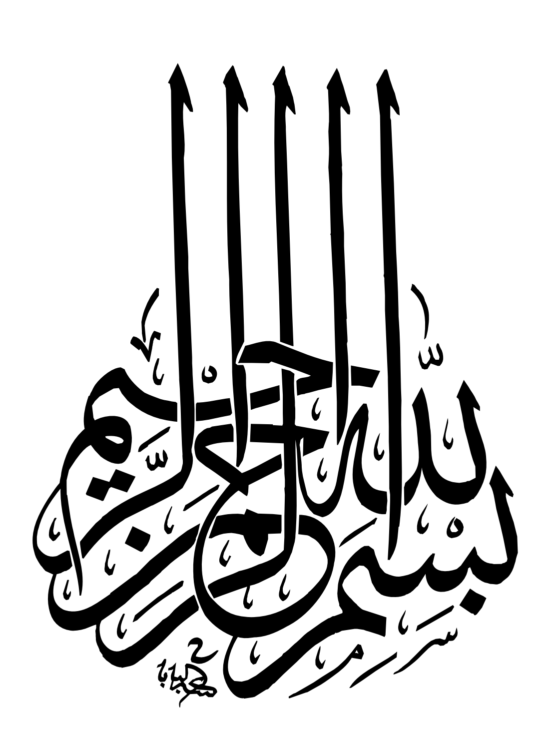
الأُستاذُ الأَعْظَمُ

الفَقِيهُ المقدّم

(٥٧٤ - ٦٥٣هـ)

بقلم خادم السَّلَف

أَبي بكرٍ العدنيّ ابن عليّ المشهور


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

[فاطر: ٢٧-٣٠]

شَاهِدُ الحَال

فأحوالُهُ قـــد أَبْهَــرَتْ كُـــلَّ عــارِفٍ

مَعارِفُـــهُ في العِلْـــمِ عالِيَـــةُ الـــسُّمْكِ

أبي الأوليـــــــا راقي العُلا عُمْدَةِ المَلا

و ها هو في الأقطــابِ واسِــطَةُ الـــسِّلْكِ

وكَنــز النَّدَى مجَلَى الصَّدَى شمَعَـــةُ الهُـــدَى

إذا ما بـــدا للخَلْــقِ في ظُلَـــمِ الحُلْـــكِ

وَبَدْرُ هُدًى مخُزِي العِـــدا مُـــذْهِبُ الـــرَّدَى

عَظِيمُ المَدى المَأْمُولُ في المَوْقِــفِ الــضَّنْكِ

« الغُرَر » ص١٥٥

الإهداء

إلى رُوحِ سَيِّدي الفقيهِ المُقَدَّم..

إلى مَن سُمِيَ بالأستاذِ الأعظمِ لأنــه جَــدِيرٌ بالأســتاذيَّةِ والإعظام..

إلى الذي حَوَّلَ مسارَ السفينةِ عرضَ المحيطِ الهائجِ فوجَّهها إلى بَرِّ الأمان..

وإلى أحفادهِ البرَرَةِ الذين لا زالوا يحمِلُونَ في قُلُوبهم وقَوالِبِهم خَفْقَ الإيمانِ بحقيقة ارتقاءِ رَكْبِ السلفِ الــصالحِ إلى أعلــى مقاماتِ الإحسان ((أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كأنَّكَ تَراه ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراك)) ..

المُؤَلِّف

المقدمة

الحمد للّه ومنه المَدَدُ في كل أمرٍ يُراد . وبأمرِه تتحركُ الأسبابُ في تَسْيِيرِ اختيارِ العِباد، والصلاة والسلام على القدوة الأمثل، والأسوة الأكمل، الذي جعله اللّه إمامَ الأولياء، ومثالَ الأتقياء، سيدِنا محمدِ بنِ عبدِاللّه صفوةِ الأصفياء، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، على قدم الإسلام والإيمان والإحسان، إلى يوم لقاء المَلِكِ الدَّيّان .

وبعدُ فهذه ترجمةٌ موجَزةٌ لأحدِ أعلامِ آلِ البيتِ النبويِّ بحضرموت، ضمّنتُها حسب استطاعتي واستعدادي أهمَّ ما أبرزه العصر آنذاك من هِمَّة الرِّجال وعطائِهِم الفكريِّ والاجتماعيِّ، وخصوصاً مثل هذا الإمام الجِهْبِذِ الذي كان له الأثرُ الفاعلُ في تَحَوُّلِ مدرسةٍ بكاملها من أسلوبٍ منهجيٍّ إلى آخر .

وبرغم أن « المدرسةَ الإسلاميةَ » واحدةٌ في أصولها إلا أَنَّ نماذجَ الفكرِ المندرجِ تحت هذا الشعار الواحد جعلَ للأفذاذِ في التاريخ مواقفَ يستخلصون منها وبها النجاةَ المحقَّقَةَ من ثائرة الفتن في الدنيا وطائلة العذاب يوم القيامة . فجاءت مدرسةُ التصوُّف العلويَّة بحضرموت، وكانت إبَّان ذلك العهدِ مطلباً وغاية، ولهذا شَقَّتْ

طريقَها في ثَباتٍ ونجاح، وكان فيها رجالٌ إذا رُؤُوا ذُكِـرَ اللّـهُ، تُخْرَسُ أمامَ أنوارِهمُ الفيَّاضَةِ وأعمالِهمُ الصالحةِ كلُّ لسانٍ مُعْتَرِضَة، وكلُّ وقيعةٍ مُغْرِضَة، ونحن اليومَ نكتبُ عن نماذجهـا الأماثـل، في عصرٍ تغيرتْ فيه المفاهيمُ والمقاييس .

وليس غرضُنا أَنْ نُلزمَ الناسَ بهذه الطريقِ إلزاماً، وإنما نحن نَـصُدُّ هجمةَ الكَذِبِ المَشين التي تَبَنَّاها كثيرٌ من حَمَلَة الأقـلام ورمـوز الإعلام، الذين جعلوا هَمَّهُم وشُغْلَهُم وتكوينَ شخصيَّاتهم مبنيّاً على تحقير الأسلاف وتتبع تِراتِ وعيوبِ وإشكالاتِ أقوالهم وأعمالهم، فشغلوا جيلَ العصر عن بناء الإسلام الحق « ديناً ودولةً » بأقوالٍ لا تُسمنُ ولا تُغني من جوع .

ورغبتُنا هنا أن يتأملَ القارئُ ما كتبناه ثم يعرضه على حقـائق دعوة الإسلام بمنظور الإسلام لا بمنظور فقهـاءِ القَـصْعَةِ علمـاءِ الإعلام، فيجد أنَّ الشيوخ الماضين كانوا حقّاً على الطريق الأقوم، وأنّا في أمسِّ الحاجة للاقتداء والاتِّباع دون إفراطٍ ولا تفريطٍ .

من هو الفقيه المقَدم ؟

هو الشَّيخ الإمام، والأستاذ الهمام، صاحب القدر الجليل، والمقام الحفيل، المعروف بوُفُور علمِه، وسَعَةِ حلمِه، وصدق عمله، وسلامةِ تَوَجُّهِه القلبيِّ والقالبيِّ لحضرة ربه، الذي نـــال رتبـــة « الأســـتاذيَّةِ العظمى » بجدارةٍ واكتمالِ كلِّ الشروط . وهو أوَّل من أُطلِقَ عليه هذا اللقبُ الجامعُ في سلسلة بني علوي لما بلغ إليـــه مـــن العلـــم والعمل، ولأنه أوَّل من حمل لواء التصوُّف في حضرموت وحوَّل به مجرى الحياة الفكريَّة خلال عصره وما تلاه من العصور بعد ذلك .

كان مولدُه بمدينة تريم سنة ٥٧٤، ونشأ بها وترعرع في مجتمـــعٍ موفورِ الهداية والإيمان، فحفظ القرآن وجملةً من المتون في شتَّى العلوم والفنون، واستفرغ وقتَه وجهدَه في الاِطِّلاع على كلِّ علمٍ مكنون، كما امتلأ منذ صباه بما رآه من بركات العلم والعمل بـــه في محـــيط أبويه وأسرته، وكذلك في مجموع سلوك أهل بيته حيـــث يتـــشابه المجتمع في الأخذ بالعزائم، وانتهاجِ رياضة النفوس وترويض الغرائز .

فانتقل بهذا العزم من طَورٍ إلى طَـــور ومـــن حـــالٍ إلى حـــال، مستصحباً اهتمامَهُ بكافة العلوم من القرآن والتفسير والحديث وعلوم

الآلة وغير ذلك، حتى برزتْ علاماتُ النبوغ عليه، وأشارت أصابعُ الاجتهاد متوجهةً إليه، وبرز في محيط الطلب على أقرانه متفوقاً، وفي السلوك والعمل الصالح مجتهداً ومنطلقاً، فلم يَثْنِه ذلك عن الاستمرار في الأخذ عن الشيوخ الأكابر، بل ظلَّ متعلقاً بهم آخذاً على أيديهم علوم الباطن والظاهر، وكان جُلُّ اهتمام الشيوخ آنـذاك بـالعلوم الظاهرة وتحقيقها .

وكان من أجل شيوخ ذلك العصر ومن أكبر مـشايخ المـصر الشيخ العلامة علي بن أحمد بامروان[1]، والشيخ العلامة عبداللّه بن عبدالرحمن باعبيد التريمي[2]، والشيخ القاضي أحمـد بـن محمـد

(١) هو الشيخ الحجّة العالِم العامل عليٌّ بن أحمد بن سالم بن محمد بن علي بن سـالم مروان التريمي الحضرمي صاحب التصانيف العظيمة والفتاوى المفيدة والبديعـة، كان من أكابر أئمة العلم بتريم في عصره مع زهدِه وورعِه واتِّساعِ باعه في علوم الأصول والحديث والتفسير واللغة، أخذ عنه الفقيه المقدم أخذاً كـاملاً وكـان يخصُّه بمزيدٍ من الرِّعاية والعناية، ويَلْحَظُ فيه سِماتِ النُّبوغِ والفِطنـةِ والـذَّكاء، وأدرك من خلال معاصرته ومناقشته إياه ما يتمتع به من قوة الحفظ والاستيعاب، وما منحه اللّه من فهمٍ ثاقب ورأيٍ صائب، حتى شَهِدَ له بعد نـضوج معرفتـه وكمال أخذه بقوله : « اجتمعتْ فيك يا فقيه شروطُ الإمامة كلِّها » .

(٢) كان من أبرز شيوخ الأصول والحديث والتفسير والعقائد وعلوم القرآن واللغة، بـل ذكر أنه بلغ رتبة الاجتهاد واعترف له علماء عصره في حضرموت واليمن والحجاز

باعيسى، والإمام العلامة الفقيه سالم بن فضل، والسيد العلامة الحافظ علي بن محمد بن جديد، والشيخ العلامة محمد بن أحمد بن أبي الحب، وغيرهم من شيوخ تريم الذين أخذ عنهم وارتوى من مشاربهم، حتى شهد له الجميع بالاقتدار والجدارة، وصاروا يقدِّمونه ويلحظون في ملامحه الصدارة، وهم لا يعلمون ما يُكِنُّه اللّهُ في علمه عن مستقبل هذا الفقيه، وما سيُجريه اللّهُ من الأمور على يديه.

وكانت حضرموت آنذاك كغيرها من بلاد الإسلام تزخر بالفتن، وتغلي مشرقاً ومغرباً بالأذايا والمحن، والعين ملتفتةٌ آنذاك إلى «آل البيت النبوي»، ولم يكن في حضرموت أحدٌ سوى ذرِّيَّة الإمام

بطول الباع في كافة العلوم، وقد ذكر صاحب «شرح العينية» أن الشيخ المذكور لما زار الحرمين الشريفين اجتمع في مكة مع فقهاء كثيرين، وألقى عليهم أحد كبار علماء الحرم مسألةً دقيقةً فلم يجبه عليها إلا الفقيه أبوعبيد المذكور، فقال له ذلك العالم: أظن أنه ما على وجه الأرض من يجيب مثل هذا الجواب إلا أن يكون الإمام عبداللّه بن عبدالرحمن بن أبي عبيد التريمي، فقال: أنا هو.

أخذ عنه الفقيه المقدم أخذاً تاماً وانتفع به انتفاعاً جماً ونال منه الإجازة والسند والاهتمام الكلِّيَّ، وقد جاء في «العقد النبوي» ص٢٧٥ ما يفيد أن الشيخ أباعبيد كان لا يبتدئ درسه حتى يحضر الفقيه المقدم، ومن آثار هذا الشيخ كتاب «الإكمال على التنبيه»، ذكره الإسنوي في «طبقاته».

المهاجر، ترمقهم عيونُ الناس بالمحبَّة والإجلال، وتُكِنُّ لهم العطـف والتقديرَ وتفديهم بالحال والمال، وكانوا آنذاك قلةً قليلةً بين بقيـة الناس . وكان الإمام الفقيه المقدم قد استشفَّ وأدرك من خـلال معاصرته للحياة وفهمه الثاقب أنَّ « آلَ البيت النبوي » مستهدَفون آنذاك، خصوصاً من أعينِ الحاسدين والمنافسين اللـذين يرقبـون الأمور ويرفعون الأخبار إلى عواصم الخلافة، فخشي أن يُظَنَّ بهـم وهم على مظهر الحلم والعلم ومحبَّة الخَلْق والتفافِ الناس حولهم أن يَبْرُزَ فيهم من يطالبُ بالأمرِ وينافس أهل الأمر في السلطان، وإذا ما استُفِزُّوا وأُوذُوا واتُّهِمُوا في شيءٍ من ذلك فقد يلَجَؤُون للدفاع عن أنفسهم واستخدام السلاح الذي كان جزءاً من حياتهم، حتى قيل : إنَّ الفقيهَ المقدم كان يجلس بين يدي شيخه بامروان وسيفُه علـى فَخذَيِه . وإذا ما تحقق هذا الظن لدى المتربِّصين فالواقعُ المحيط كلُّه يحمل السِّلاح . وبإشارةٍ معينةٍ يمكن أن يعودَ للتاريخ مثالٌ جديـدٌ وصورةٌ متكررةٌ ليوم « كربلاء » في حضرموت، والجِراحُ ما زالتْ طريَّةً لم تَجِفَّ على مدى التاريخ .

وكما قدح ذهنُ الإمام المهاجر يوماً وهو « بالبـصرة » ليتَّخِـذَ قراراً حازماً يُخرج به ذريَّته من محيطِ الفتنة فقد قدح ذهنُ الفقيـه

المقدَّم لاتخاذِ أمرٍ ما يحفظ هذه الذرية المباركة من الذوبان في الواقع الملتهب.

أخذ القرارُ يعتملُ في نفس الفقيه المقدَّم شهوراً عديدةً وهو الأستاذ المطَّلع على كافَّة النماذج الفكريَّة والسياسيَّة القائمة في أطراف بلاد الإسلام، يقارن ويوازي بين الحال القائم والمفترض، ويبحث عن المخرج السَّليم، والرأي الصائب الحكيم، الذي لا يمكن التحول عنه ولا الرجوع . فلم يجد شيئاً يَأْنَسُ إليه فؤادُه، ويرتاح إليه ضميره مثل الأخذ بمنهج الفقرِ إلى اللّه وتركِ الرِّياسات، وهذا إلا يأتي إلا بأخذ المنهج الصُّوفي .

ولم يكن « التصوف » جديداً على ذرِّيَّة المهاجر، فقد أُثِرَ أنّ أولَ من تنفَّسَ الأنفاس الصوفية بحضرموت هو الإمامُ عُبيدُ اللّهِ بنُ أحمدَ المهاجر بعد عودته في النصف الثاني من القرن الرابع من مكة المكرمة بعد أخذه العلم عن الشيخ « أبي طالب المكي » المتوفى سنة ٣٨٦، وقراءتِه عليه كتابَه « قوتَ القلوب »، وجاء من بعده الإمام سالم بن بصري بن عبيد اللّه ، وكان من رجال الأنفاس الصوفية علماً وعملاً ؛ لكن هذه الأنفاس الفردية لم تتخذ في الواقع تأثيراً

شاملاً مدرسةً ومنهجاً [1] بل اتخذ شكلاً وراثياً عائلياً في « ذرية آل باعلوي » .

الفقيه المقدم والشيخ سعد الظفاري

والفقيه المقدّم كما أنَّه إمامٌ مجتهدٌ ومحدِّثٌ وأصوليٌّ بارع، فهو أيضا الصوفيُّ الذائقُ صاحبُ الحسِّ المرهفِ والشفافيَةِ الروحيَّة الملتهبةِ، مَثَلُه مَثَلُ غيرِه من أهله وأسلافه [2].

---

(١) سبق أهلُ اليمن في تِهامةَ وزَبيدٍ والمراوعة وغيرها إلى الأخذ بالتصوف، وتحوَّل في عصر أبي الغيث بن جميل ومحمد بن إسماعيل الحضرمي وغيرهم في عصر الفقيه المقدم إلى «مدرسةٍ مؤثرةٍ في الحياة»، إلا أن أهل حضرموت لم ينقلوا منهج هذه المدرسة التي كانت تنتمي إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني والتي كانت منتشرةً في كثير من بلاد الإسلام .

(٢) الطريقة الصوفية العلوية لها طريقان : واحدةٌ متسلسلة بالآباء والأجداد إلى النبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم، وتسمى طريقَ الأخذِ، وتبدأ من الأسفل عن الفقيه المقدم إلى أبيه وعمه علوي ثم صاحب مرباط ثم إلى سيدنا علي خالعِ قَسَم، ثم إلى أبيه علوي، ثم جده محمد، ثم علوي صاحبِ سُمَل ثم عبيداللّه بن أحمد المهاجر، ومن المهاجر إلى آبائه وأجداده : عيسى ثم محمد ثم علي العريضي ثم جعفر الصادق ثم محمد الباقر ثم علي زين العابدين ثم الحسين والحسن ثم الإمام علي ثم إلى فاطمة بنت الرسول، وإلى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم،وأساس

إلا أن صوفيةَ الفقيه المقدم كانت بارزةً في سلوكه وتوجهاته منذ صباه متأثراً بالمعاني الراقية التي يقف عليها في كتاب اللّه وتنـــدرج معانيها في نفسه، كما تأثر بسعة الاطلاع والملاحظـــة والقـــراءة والمعاصرة على كثير من نماذج التَّنفُّسات الصوفية في عصره، فبـــدأ ذهنه ينقدح بالحقائق والمعاني الفائقة غيرَ مُنْتَمٍ إلى مدرسةٍ معينة غيرِ مدرسة أهله وأسلافه الذاتية، وبدأت تلك الحقائق والمعاني تَـــشْغَلُه وتُزعجه وتُلِحُّ عليه في معرفة غامضها و حل إشكالها، فلم يجـــد في محيطه من يَشتغل بهذا العلم أو يُلْقي به بالا، فكتـــب إلى الـــشيخ العلامة الصوفي سعد بن علي الظفاري ثم الشحري[1] يـــسأله في بعض المسائل الدقيقة . وما يجده في نفسه وحاله من الإشـــراقات . فرأى الشيخ سعد أن الفقيه المقدم قد خاض بحراً عميقاً من بحـــور

هذه الطريق قوله صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ : «أَدَّبَني ربّي فأَحْسَنَ تأديبي».

أما الطريق الثانية فهي « الطريقة المغربية الشُّعَيبِيَّة »، وسنتحدث عنها خلال هذا الكتاب، وكون الطريقين تبدأ من الفقيه المقدم لأنه أول من جمع بين طريقتين ثم حوَّلها إلى منهجٍ عَمَليٍّ ومدرسةٍ سلوكيةٍ في الحياة، إذ كانت من قبل مـــذهباً ذاتيّاً وخُلُقاً فردياً.

(١) توفي الشيخ سعد بن علي الظفاري ثم الشِّحْرِيّ سنة ٦٠٧، ويستفاد من ذلك أن مكاتبةَ الفقيه له وقعتْ والفقيهُ في مقتبل العمر ؛ لأن الفقيه توفي سنة ٦٥٣ .

العلوم المكنونة، وتحدث بأمور سلبتْ عنه كثافاتِ البشرية وارتقتْ بحالِه إلى عالَمٍ نُورانيّ غير معهود في مدرسة حضرموت السائدة « لا حالاً ولا مقالاً » .

ولما كان الشيخ سعد من رجال التسليك والتأديب فقد خشي أن يكون هذا الأمر الذي حل بالفقيه «غلبةَ حالٍ» أو «تسويلاتِ نفسٍ بشريةٍ»، فكتب إلى الفقيه المقدم يحذره من مكائد الشيطان ويخوفه ويذكر له قصص بعض المستدرجين كبَلعامِ بنِ باعوراء وغيره، كلُّ ذلك مخافةً عليه ومحبةً له .

وكان موقف الشيخ سعد موقف « الحجة » الذي يلزمه الإبلاغ قبل الوقوع في المحظور، ولكن الحال الذي يصفه الفقيه المقدم للشيخ كان لا ينطوي تحت هذه العلل الشيطانية والتسويلات النفسانية، ولهذا لم ينقطع عن الكتابة للشيخ سعد بل ظل يخبره بما ينقدح في قلبه من الفهوم، وما يشرح اللهُ به صدرَه من المنطوق والمفهوم، شاهده قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿واتَّقُوا اللّهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ .

فما كان من الشيخ سعد إلا أن ألقى الشراع، وأدرك أن الحال الذي يصفه الفقيه المقدم « مقامٌ إحسانيٌّ وعطاءٌ ربانيٌّ » يتجلى معناه في قول النبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ لبعض صحابته : « لو

كنتم كذلك لصافحتكمُ الملائكة » فكتب إليه جواباً يقول فيه : « فلا تجدْ علي يا فقيهُ في هذا فهو محبةٌ ونصيحةٌ، وقد شرحتُ لك ما قَدَّرَ اللّهُ، فهو المُعِينُ على جميع الأمور، نسأله لك ولنا أن يوفقَنا لما يحبُّه ويرضى، وأن لا يجعل للشيطان علينا سبيلاً، وأن يُرِيَنا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه والباطلَ باطلاً ويعينَنا على اجتنابه، ثم إني أقول لك قولَ ناصحٍ محبٍّ مشفقٍ أن لا يكون قلبُك متعلقاً بالكرامات ولا غيرها، ولا تلتفتْ إليها ولو ظهرتْ لك أيَّ ظهور، وليكن قلبك متعلقاً بمحبة اللّه تعالى، وإلزم حالك الذي أنت عليه ولو قامت عليك القيامة، ولو رأيتَ أيَّ هولٍ فلا يَهُولَنَّك، وكلما عَرَضَ عليك شيءٌ فزِنْهُ بميزان الشرع وكتاب اللّه، فما وافق الحق فاتبعه وما لم يوافقِ الحقَّ فاترُكْهُ . وأنت يا فقيهُ أهدى مِن أَنْ تُهدى إن شاء اللّه وأعلم بالشريعة والحقيقة [1] » .

---

(١) الحقيقة هي عِماد النظرة الصوفية، وقد كتب فيها أهل الشأن بما لا يحتاج إلى المزيد، ونلخص هنا ما كتبه الأستاذ الدكتور الشرقاوي في بحث « الشريعة والحقيقة »، ومفاده تلازم الأمرين عند الصوفية، فالطريق إلى اللّه عندهم واحد، فإذا كانت الشريعة هي الرسم والخريطة والدليل، فإن الحقيقة هي الصدق والإخلاص في سلوك طريق الحق بحيث لا يكمل البِناءُ الصوفيُّ إلا بهما معا، فشريعةٌ بلا حقيقةٍ عاطلةٌ، وحقيقةٌ بلا شريعةٍ باطلةٌ .اهـ نقلت عن «دراسة

الفقيه المقدم والشيخ سفيان اليمني [1]

وأثناء هذه المرحلة قَدِمَ الشيخُ سفيان اليمني لزيارة حضرموت، ونـــزل تريم، واجتمع بكثيرٍ من صلحائها وعلمائها وألزمـــوه أن

وتحقيق ديوان الشيخ عبد القادر الجيلاني » للدكتور يوسف زيدان ص٩٠.

(١) كان فقيهاً عالماً فاضلاً عارفاً اشتغل في بداياته بالعلم اشتغالاً كلياً، وتـــرجم لـــه الشرجي في « طبقات الخواص » ص١٤٦ - مطبوع - تحت عنوان [أبومحمـــد سفيان بن عبدالله الأبيني] وهي إشارةٌ إلى بلده الذي ولد بها، وهي مدينة أبـــين شرقي عدن، وأما نسبه فيؤخذ منها أنه ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما صرح هو به في قصيدة له يقول فيها :

سَلَكْتُ مُتابعـــاً آثـــارَ جَـــدّي محمـــــدٍ المُـــشَفَّعِ في المَعـــادِ

وقد ترجم له السيد حامد الحداد ترجمة موجزة طبعت سماهـــا « الفرائـــد الحسان في مناقب الشيخ سفيان » ، ونقل فيها نقلا عن كتاب « مناقبه الكبرى » المفقود أن الشيخ سفيان رحل إلى المغرب لطلب العلم وأخذ الطريقة عن الإمـــام أبي مدين، وقد ذكره الإمام اليافعي في كثير من مصنفاته وأثنى عليه كثيراً، وقال: وأما وصوله إلى مصر فقد بلغني أنه إنما سافر إليها ليحضر الجهاد بدمياط وكـــان فتح المسلمين على يده . ويقول عنه أيضا : كثرة رحلات الشيخ سفيان إلى كثير من البلدان في بدايته وفي نهايته لا يشك في كثرة من أخذ عنهم ومن أخذوا عنـــه وإن لم يحفظ لنا التاريخ إلا النـــزر القليل .

وقد توفي الشيخ سفيان سنة ٦٠٢ بلحج وتربته هناك من الترب المـــشهورة المقصودة بالزيارة، وتقام له زيارة مشهورة في ربيع الأول كل عام .

يستسقي بهم، فقال لهم: انــزلوا أصلحوا مجاري المــاء وطُرُقَــه، فخرجوا فإذا السبيل في مجاري أرضهم وسواقي بساتينهم وحدائق نخلهم كرامةً من اللّه تعالى للشيخ سفيان اليمني.

واجتمع الشيخ سفيان في تلك الزيارة بالفقيه المقدم محمد بـــن علي وهو إذ ذاك في أول فتحه ومبتدأ ظهور حاله، فحصلت بينهما مذكراتٌ وانبساطاتٌ، واستمد كل منهما من الآخر مدداً عظيماً، ثم لما رَحَلَ الشيخُ سفيانُ أرسل إليه الفقيه المقدم كتاباً يشتمل على لوامعٍ من النور المكنون، فلما وقف عليه الشيخ ســفيان قــال في جوابه إلى الفقيه كلاماً لامعاً معناه أو قريبٌ منه : « إنَّ هذا شيءٌ لم نعرفه، ومقامٌ لم نبلغه »[1].

---

(١) أخذت مسألة « إشكال الحال » طرفاً كبيراً في مساحة التراجم، والمقصود بهــا حديث الولي في أدق مسائل الحقائق أو الكلام عن كــشوفاتٍ جليــةٍ وأنــوارٍ وعوارضَ نورانيةٍ ومناماتٍ وغيرِ ذلك تظهر للمرء مع بدايات سلوكه ومع كثرة الصيام والأوراد والعبادات، بحيث تسمو النفس وتصفو من الكثافــات البــشرية المعتادة، فتُبْرِزُ هذه الرياضاتُ « أحوالاً مشكلةً عند الناس » لعدم معرفتهم بها .

أما الأولياء والعلماء فلا يجزمون فيها بحالٍ قاطعٍ خشيةَ التلبيس، كما هــو قول الشيخ سعد الظفاري والشيخ سفيان اليمني في حال الفقيه المقدم، وأضاف صاحب «العقد النبوي» حكاية قال فيها : إن ثلاثةً مــن الرجــال اشــتهروا في

ويبدو أن الإمام الفقيه المقدم استغرقته الأحوال من جهة، وشغله القلق من مجرى الصراع الدموي في ساحة الأمة علـــى المناصـــب

حضرموت، وهم الفقيه المقدم والشيخ عبد اللّه بن إبراهيم قشير، ورجل غريب، وأشكل حالهم على الناس، فسافر بعض المشايخ إلى الغيث ابن جميل وهو إذ ذاك ببيت عطاء، وسأله فقال: أما الفقيه محمد بن علي باعلوي فما وصلنا إلى درجتِه حتى نَصِفَها لك، وأما الشيخ أبوقُشير فرجل صالح، وأما الرجل الغريب فلـــيس على شيءٍ . اهـــ من « العقد النبوي » ص٣٠١ .

وذكر « العقد النبوي » ص٢٧٤ إشارةً بينةً لموقف أحد المؤلِّفينَ المعارضينَ لما ظهر من أحوال الفقيه في بداية سلوكه : « فليت شعري ماذا يقول مـــصنِّف كتاب «تحفة المريد» بما أمد اللّه الشيخ القطب الفقيه محمد بن علي بـــاعلوي في هذه المدة المديدة والعمر الطويل من عظيم المدد في كل نَفَس، وكيف يتجرأ على الفقيه ويَغُضُّ من منصبه الرفيع العلي وشامخ عالي مقامه السامي، ولقد خبط في ذلك خبط عشواء، وجَسُرَ بالكلام وتجرأ » .

وكل هذا الاعتراض والإشكال إنما كان «من باب الخوف والـــشك مـــن التلبيس» في بداية أمر ظهور الأحوال على سيدنا الإمام الفقيه المقدم، ثم لما ثبـــت للمُعارِضِ والموافقِ سلامةُ المنهج وصدقُ التوجه في سلوك ذلك الإمام، وبـــرزت البراهين دالةً بما لا يقتضي الشك أن الفقيه المقدم قد بلغ رتبة اليقين الكامـــل في علمي الظاهر والباطن، وبلغ رتبة الاجتهاد وارتقى بجدارة إلى مرتبة الإحـــسان ؛ سلم له أهل عصره وسار بهم مسيرة الانعطاف الفكري على طريق الفقر إلى اللّه تعالى، وترك دعوة المناصب والرياسات .

والمراتب من جهة أخرى، وخشي من انفلات الأمور في أهله وذويه وبني عمومته إلى تياراتٍ تُفرَضُ عليهم في مجرى الحياة الاجتماعية، فعقد أمراً في نفسه وبدأ يبني فكرتِه ليبرز الأمر إلى مجرى الحياة .

تأسيس المدرسة الصوفية العلوية بحضرموت

كان القرن السادس الهجري يزخر بالعديد من التيارات الفكرية ما بين حقٍّ وباطل، وذلك نتيجةُ ما ولَّدته القرون السالفة من عهد صدر الإسلام حتى ظهور المذهبية في العالم الإسلامي وظهور المدارس الصوفية، وقد بَرَزَ في هذه المرحلة من المذاهب الفقهية مذهبُ الإمام الشافعي بحضرموت ونواحيها، بينما ساد المذهب الزيدي في صنعاء وما حولها، وساد أيضا في حضرموت منهج الأشاعرة في الاعتقاد وضَعُفَ أثر الخوارج ودعوهم الإباضية .

أما التصوف فقد انتقل عبر مراحلِ تَكَوُّنِهِ من عصر الصدر الأول من مرحلة الأفراد والشخوص، ليصبحَ مع مطلع القرن السادس فكراً مزاحماً للمدارس المنتشرة في العالم الإسلامي، يحمل أطروحةً فكريةً لها وزنُها في معطيات الأفكار والرُّؤَى والتوجهات .

وتتلخص المدارس الصوفية خلال مرحلة ظهور الفقيه المقدم إلى مدرستين عالميتين :

الأولى : المدرسة الصوفية القادرية في المشرق

وتنتمي هذه المدرسة للشيخ الكبير عبد القادر الجيلاني[1] المتوفى سنة ٥٦١ الذي انتهت إليه الرئاسة في علوم الطريق وشرح أحوال

---

(١) وهو السيد الشريف القطب عبد القادر ابن أبي صالح موسى جِنْكِي دُوسْت ابن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبدالله بن موسى الجَون ابن عبدالله المحض ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ .

وُلد سنة ٤٧٠ وقيل سنة ٤٧١ بجِيلان، ودخل بغداد وهو ابن ثمانية عشر سنة، وبدأ الطريق إلى الله متجرداً سائحاً يجاهد نفسه فى العبادات والطاعات بين صيامٍ وقيامٍ وترويضٍ للنفس على أصعب الأمور حتى ظهرتْ عليه آثارُ النورانية وثمرةُ المجاهدات القلبية والقالبية، وحصلت له جملةٌ من الكشوفات .

وكان له أخذٌ تامٌّ في علوم الإسلام فقهاً وعقائدَ وأصولاً وحديثاً وغيرَها على جملةٍ من علماء عصره، منهم الشيخ أبو الوفا علي بن عقيل وأبو الخطاب محفوظ بن أحمد وأبو الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلى وأبو سعيد المبارك بن علي المخزومي، واستمع الحديث النبوي من جماعة منهم أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني ومحمد بن عبدالكريم ومحمد بن علي ميمون وأحمد بن مظفر

القوم . كما انتهت إليه تربية المريدين بالعراق، وتتلمذ له خلقٌ كثيرٌ ولبس منه الخرقة خلائقُ لا يُحْصَونَ، وإليه يرجع جمهور شيوخ اليمن[1] .

وجعفر بن أحمد القاري وعلي بن أحمد الكرخي وإسماعيل بن أحمد الأصفهاني وعبد القادر بن محمد وعمر بن عبد الرحمن وهبة اللّه ومحمد الهاشمي وغيرهم . وقرأ الأدب على ابن يحي زكريا بن علي التبريزي .

وصحب الشيخ العارف باللّه حماد بن مسلم الدَّبَّاس وأخذ عنه علم الطريقة وتأدب به، ثم هيأ اللّه له الظهور وأجرى الحكمة على لسانه، وعَمَرَ مدرسةَ أستاذه أبي سعيد المخزومي ووسعها وتصدر للتدريس بها والفتوى والوعظ، وقصده الطلبة من كل مكان وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق،وسُلمت إليه أَزِمَّةُ المعارفِ، فأصبح مرجع العصر وقطب الزمان . وصنَّف كتباً مفيدةً وأملى فوائدَ عديدةً، ولُقب «بإمام الفريقين» و «موضح الطريقين»، وإليه يرجع سند شيوخ اليمن . اهـ بتصرف واختصار عن «شرح العينية» ص٥٥٠ -٥٥٥ الطبعة العصرية، حلب .

(١) قال الإمام أبوبكر العدني ابن عبداللّه العيدروس في كتابه « الجزء اللطيف في التحكيم الشريف » ص١٦ : « فإنه كان الغالب على أهل اليمن ومناسبهم المشهورة انتماؤهم إلى الشيخ عبدالقادر ما خلا الفَذِّ القليل كالسادة الأشراف آل باعلوي وآل العمودي، وسيدي الوالي العارف ذو الأحوال والمعارف القطب الغوث الشيخ جوهر العدني نفع اللّه به، فإن نسبته مما اشتهر إلى الشيخ أبي مدين،وكذلك جد آل بامعبد »، والمناسب جمع منسب وهو طريق اتصال السند.

الثانية : المدرسة الشعيبية في المغرب

وهي المدرسة الصوفية المنسوبة للشيخ الكبير أبي مَدْيَن شعيبٍ[1] التِّلمسانيّ المغربيّ المتوفى بتِلِمْسانَ من أرض المغرب سنة ٥٨٠، الذي انتهت إليه علوم القوم ورئاسة طريقهم، وأحد الذين أظهر اللّه بهم فنونَ الحكمة وأسرارَ المعارف في أرض المغرب، أخذ عنه كثيرون وتخرج به جماعةٌ من الأكابر وانعقد الإجماع على فضله .

---

(١) هو الشيخ الإمام أبومدين شعيب بن الحسن أو الحسين المغربي نسبة إلى جهة الغرب، وكنيته أبومدين، وولده مَدَيَنُ مدفون بمصر، أما هو - أي: الشيخ شعيب - مدفون بتِلِمسان من أرض المغرب، كان أحد أوتاد المغرب وأقطابه وأركان هذا الشان، تخرج به جماعة من الأكابر وتتلمذ له خلائق من أهل الطريق، وإليه تنتسب الطريقة العلوية بحضرموت، أي أنها في أحد أسانيدها الصوفية متصلة به، كما سيأتي في لاحق هذا الكتاب . انتهى عن «شرح العينية» ص٥٦٨ بتصرف واختصار .

وأضاف كتاب « أُنْسِ السَّالِكين » للسيد باهارون ص٥١٩ فقال : وهو أحد من جمع اللّه له بين علمي الشريعة والحقيقة، فأفتى في بلاد المغرب على مذهب الإمام مالك رضي اللّه عنه،وناظر وأملى، وأخذ عنه جملة من رجال المغرب .

الفقيه المقدم وارتباطه بالطريقة الشعيبية المغربية

لم تكن حضرموت في «هذه المرحلة» بمَعْزِلٍ عن التحولات والأحداث الجارية في العالم الإسلامي، وما يدور فيها من صراع فكري واجتماعي، بل كان واقعُ الزمان وأحوالُه السياسيةُ مُسْهِماً إلى حدٍّ كبيرٍ في ظهور المدارس الصوفية، وهي التي تمثل انعكاساً حتمياً لذلك الواقع ومعطياته، وكما أشرنا آنفاً أنّ ذهنَ الفقيه المقدم قد انقدح بأمرِ ضرورةِ التحولِ المنهجي لما تقتضيه المصلحة اللازمة القائمة، ليس في الواقع الحضرمي فحسب وإنما في العالم الإسلامي كله.

ولم يكن هناك من مخرجٍ ملائمٍ بعد التقصي والدراسة الواعية عند الإمام الفقيه المقدم غيرُ الأخذ بالطريق الصوفي منهجاً أخلاقياً وموقفاً سياسياً أمام المواقف الفكرية الأخرى، ولقد كانت حضرموت في تلك الآونة تزخر بنشاطٍ علميٍّ وعمليٍّ زاخرٍ، وكان الفقهاءِ والمحدثون والأصوليون هم المتصدرون في منابر العلم والتعليم وعلى المنابر الإسلامية، ولم يكن الفقيه المقدم منعزلاً عنهم بل كان في مقدمةِ تلاميذ الفقيه العلامة الشيخ علي بن أحمد

بامروان جالساً بين يديه وعلى فَخِذِه سلاحُه ؛ حيث كان قلب الفقيه مفعماً بآثار التعبد والمجاهدة في ذات اللّه التي ألزم بها نفسه وأشرقت عليه أنوارها، فكان يزعجه من أقرانه وجلسائه ما يسمعه من خوضٍ فيما لا يعني، ويقلقه طولُ الجدل الفقهيِّ الفَرَضِيِّ المَشُوب بالانفعالات النفسية، ويستشعر الجفاف العلمي في النصوص إذا لم تنعكس سلوكياتُها العليا على أهلها ؛ ولكن الأدب الذي تربى عليه والأخلاق التي تحلّى بها تمنعه من الاعتراض على مثل هذه البشريات، ويكتفي من ذلك كله بشهود الخصوصيات.

ويبدو أن أخبار هذا الإمام ومكانته العلمية والعملية وتوجهاته الفكرية قد بلغت بواسطة المسافرين إلى خارج حضرموت وتحدث الناس بأحواله وشريف أقواله . فما كان من الشيخ الكبيرِ صاحبِ بِجاية الشيخِ أبي مدين شعيب شيخِ الطريقة الصوفية بالمغرب، وهو المطلع على مجريات الأحداث ونشاط المدارس الفكرية في عصره إلا أن دعا أحد كبار تلاميذه وهو الشيخ عبد الرحمن المقعد [1] وأمره

---

(١) ينتسب الشيخ عبد الرحمن إلى الطريقة الصوفية المغربية أخذاً، وأما بلده فحضرموت كما ذكره صاحب «المشرع» (٢:٤) بما مثاله : ثم إن الشيخ الإمام

أن يدخل من المغرب إلى مكة، ومن مكة إلى حضرموت وقال له: «إنَّ لنا فيها أصحاباً، سِرْ إليهم وخُذْ عليهم عقدَ التحكيم ولُبسَ الخِرقة»[1]، وقال فيما قال: « إنك تموت في أثناء الطريق قبل أن

العارف باللّه تعالى شعيباً أبامدين ابن أبي الحسن التلمساني أرشد الشيخ الجليل عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الشهير بالمقعد، وكان من أكابر تلاميذ الشيخ أبي مدين .

(١) يعني بالخرقة « خرقةَ التصوف »، وهي لباسٌ يوضع على المريد، ويرمز إلى تَرَسُّمِ الحامل له بزِيِّ الصوفية والدخولِ في دائرتهم، وغرضُها حصولُ البركة وأخذ العهد بالسند المتصل للخِرقة ظاهراً وباطناً، واختلف العلماء في « أصل الخرقة »، فالسيوطي يُشيرُ في استدلالاته على أصلها بما أخرجه البيهقي في « شُعَبِ الإيمان » عن طريق عطاءٍ الخُراساني : أن رجلاً أتى عبد اللّه بن عمر فسأله عن طرف العمامة، فقال ابن عمر: إن رسول اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ بعث سرِيَّةً وأَمَّرَ عليها عبد الرحمن بن عوف وعقد لواءً وعلى عبدالرحمن عمامة كرابيس مصبوغة بسواد، فدعاه النبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ فحَلَّ عمامته ثم عمّه بيده، وأُفَضِّلُ موضعَ أربعَ أصابع أو نحو ذلك، وقال : هكذا فاعْتَمَّ، فإنه أحسنُ وأجمل، قال الإمام السيوطيُّ: فالاستدلال بهذا الإلباس على الخرقة أنسب .

وذكر الإمام أبو بكر العدني ابن عبد اللّه العيدوس في « الجزء اللطيف » بسنده إلى الإمام السَّهْرَوَرْدِيّ في كتابه « العوارف » مسنَداً إلى أم خالد قالت : « أتى النبي صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ بهميانٍ فيها خميصة سوداء صغيرة فقال: ما ترون ؟ أنكسوا هذه ؟ فسكت القوم، فقال رسول اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ

تصل إليهم[1] فأرسل إليهم مَن يأخذ عليهم عقد التحكيم ولـــبس

وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ: ائتوني بأم خالد، قالت : فأُتِيَ بي، فألبسنيها بيده وقال : ابْلَـــيْ وأَخْلِقِي، يقولها مرتين، وجعل ينظر إلى عَلَمَين في الخميصة أصفر وأحمر ويقول : « يا أم خالد.. هذا سناء »، والسناء هو الحسن بلسان الحبشة . اهـــــ «الجـــزء اللطيف» ص٦-٧، المجموعة العيدروسية، وفيها زيادة إيضاح .

وأضاف في « الجزء اللطيف » عن التعريف بالخرقة ص٢٢ قوله : « وإنمـــا خُصص إِلباسُ الخرقة بهذه التسمية - وهي عبارةٌ عن الطاقية والقميص والعمامة والطيلسان وغير ذلك مما يقع به اسمُ لُبْسٍ ويصح عليه حكمُ الإلباس- لأن هذه الأسماء تطلق باشتمال بركته، وأما إشارته فتقع على جميع الملبوسات » .

(١) يتضح من خلال ضمير الجمع أن الشيخ المقعد مرسلٌ إلى جملة من الناس، ومنهم الفقيه المقدم، وأما الآخرون فسيأتون في سياق الحديث، ومما يستفاد منـــا عـــن شخصية «عبدالرحمن المقعد» حاملِ رسالة الشيخ أبي مدين أنه حضرمي الأصـــل والمولد والمنشأ، فلا شك أنه من الأفراد الذين عرّفوا الشيخ أبـــا شـــعيب عـــن حضرموت ورجالها، ومن ثَمَّ اختاره ليكون سفيراً إليهم، وهذا ما يستفاد مـــن قراءة نصوص التراجم حيث لَمّح صاحبُ « المشرع » وغيرُه أن أخبار تـــصوف أهل حضرموت قبل مجيء الخرقة الشعيبية إليهم غيرُ خافيةٍ على علماء المـــشرق والمغرب آنذاك، بل كانوا على علمٍ بأحوال كلٍّ من الفقيـــه المقـــدم والـــشيخ سعيد بن عيسى العمودي وما كانا يتطلعان إليه من « شمول النظرة الصوفية » في الواقع وعدم تمكنهما من ذلك ، مع أن صاحب « المشرع » أكد استعدادَ الفقيهِ المقدمِ وانتظارَه لذلك المبعوث المغربي حيث قال : ولما علم الأستاذ بخروج عبـــد الرحمن المقعد من تلمسان خرج للقائه ثم علم بموته فرجع .

الخرقة » وأعطاه الخرقة وأمره أن يعطيها الأستاذ الأعظم، فلما وصل الشيخ عبد الرحمن الحضرمي المعروف بالمقعد إلى مكة المشرفة حضرته الوفاة، فأوصى الشيخ عبدالله الصالح المغربي، وهو من تلامذته، وأعطاه الخرقة، وقال له : « ستدخل مدينة تريم وتجد الشريف « محمد بن علي » يقرأ على الفقيه علي بن أحمد بامروان، فاعْمَدْ إليه وحَكِّمْهُ وأَلْبِسْهُ هذه الخرقة، ثمَّ اذْهَبْ إلى مدينة ((قِيدون)) إلى الشيخ سعيد بن عيسى العمودي فحَكِّمْهُ)) .

مبعوث الشيخ شعيب في حضرموت

خرج الشيخُ عبدالله المغربيُّ من أرضِ الحرمين الشريفين حاملاً معه آمالَ مدرسةٍ وتَوَجُّهَ أجيالٍ قاطعاً طريقَه من بلادٍ إلى بلادٍ مخترقاً أرض اليمن حتى وصل إلى حضرموت، ولما دخل إلى تريم وجد الفقيه المقدم بين يدي شيخه بامروان، فقال له : أَيُّ جوهرةٍ

وجاء أيضا في المشرع (٢: ٤) : وجاء إلى الفقيه رجل من أهل الشام وقال: ما جئت إلا لأجلك ؛ ولكني وجدت عبد الرحمن المقعد حائما على قلبك، فلو اجتمع أهل المشرق وأهل المغرب أن يفكوه من قلبك ما قدروا، فإذا جاءك فتحكم له .

أنت لو ثُقِبَتْ ؟! فقال الفقيه: وما الثَّقبُ ؟ قال: التحكيم، وأخبره بما أتى لأجله وأعلمه بجميع أمره، فرغب الأستاذ بالانحياز إلى جنابه والانتظام في سلك أصحابه وزهد عن الرياسة والمناصب، ورأى أن حال الفقر إلى اللّه لحاله مناسب .

ومن هذا الحوار والتعليل المثبت بنصه في كتب التراجم يستفاد زهد الفقيه المقدم في كافة مظاهر الحياة الفكرية والسياسية القائمة في الواقع، وشعوره منذ مجيء المبعوث المغربي بلحظة الفرج لإبراز ما كان يعتلج في صدره من تحويل أسرته وجماعته وأبنائه من حالة فكرية واجتماعية إلى حالة أخرى هي أمله ورغبته منذ أمد بعيد، لم ينقصها غير وجود السند الذي يناصره ويدفع معه بالرغبة من الصدر إلى حيز الواقع . لقد كان يوم التحول موقفاً عظيما، وحدثاً جسيما.

قرار التحول ونتائجه

لَبِسَ الفقيهُ المقدم الخرقة، وهي شعار التصوف ورمزه، وأخذ عليه الشيخ المغربي نيابةً عن الشيخ شعيبٍ أبي مدين « العهدَ

والتحكيم »، وانخلع الفقيه عما كان عليه، ولبس لبـــاس الــصوفية وأعلن موقفه على الجميع [1].

وكانت نتيجةُ إعلانه هذا المبدأ على المجتمع ردّاً عنيفاً من أقرب الناس أثراً وتأثيراً عليه، فقد ذكرتْ كتب التراجم أن شيخه بامروان لما رآه قد تغيرَ عما كان عليه قال له أمام الملأ : « أَذْهَبْتَ نُورَكَ وقد رَجَونا أَنْ تَكُونَ كابنِ فَوْرَك، واخترت طريق التصوف والفقر، وقد كنتَ عَلِيَّ المقدارِ والقَدْر » .

إنها عباراتٌ شديدةُ الوَقع . وكلماتٌ عاتبةٌ أَضَرُّ مِنْ أَثَرِ النَّقْع ؛ لكنَّ الفقيهَ المقدمَ لم يكن في تَحَوُّلِه مِزاجياً ولا عاطفياً، بل لم يكن في هذا الإعلان منطوياً تحت شعاراتِ الحماس المنبعث من وجـــود

---

(١) كان إعلان هذا الموقف بدايةً جديدةً لمدى قوة « آل البيت النبوي » على اتخـــاذ موقفهم في كل ما يرونه مناسباً لمصلحتهم الدينية والدنيوية، وعـــدم انـــصياعهم للواقع ولا الذوبان فيه ولو كان هذا الواقع يحمل أفضل الوســائل الفكريـــة في وجهة نظر غيرهم، وهذا ما يؤكد حقيقة قيادقم للأمة .

والمتتبع لهذا الموقف الذي اختاره الفقيه يجد أنه في موقفه لم يُلــزم « علِيـــةَ القوم » ولا شيوخ المرحلة باتباعه والانطواء تحت رايته وفكرته،بل اتخذ القـــرارَ لينفصل مع أهله وبني عمومته عن منهجهم الفكري بأدبٍ ولُطف .

النصير أو المساند، وإنما كان يتصرف بتُؤَدَةٍ ووَعْيٍ وصِدْقِ تَوَجُّهٍ وتَثَبُّتٍ، ولهذا رد على شيخه بامروان بقوله:

« الفقرُ فخري وبه أفتخر، وبه على النفس والشيطان أنتصر، ولا أتباعد عنكم إعراضا، ولا تَبَدَّلْتُ بكم مُعتاضا »، إنه أول نَفَسٍ صُوفيّ يُعلن به الفقيهُ موقفَه، ويعطي لشيخه ما يجب عليه من الانطواء والتأدب، ويُبرزُ أيضاً تعليلَ أخذِه لمبدأ التصوف المعلن ؛ لكنَّ الفقيه بامروان لم يعجبه موقف الفقيه المقدم وتحوله المعلن فأعرض عنه وهجره إلى أن مات(١).

---

(١) جاء في « المشرع » و« الغرر » وغيرها من كتب التراجم حول « مصالحة الفقيه لبامروان وتسامحه منه » قصةٌ تُشير إلى « التقائهما في منارة الجامع عشيةَ وفاةِ بامروان وكان مؤذنُ المسجد حاضراً، فسمع الكلام بين الفقيه المقدم وبين الشيخ بامروان الذي تمثلت روحه للفقيه بعد موته »، ونحن نؤمن بالكرامة ونصدقها إلا أننا هنا لم نُثبِتْها برُمَّتِها . لأنه من الجانب الشرعي الظاهر لا يُبنى عليها حكمٌ معيَّن ؛ ولأن موافقة الفقيه بامروان كانت لازمةً وضروريةً في حياته، أَمَا وقد مضى الفقيه المقدم في طريقه ولم يأخذ بالاً بإعراضِ شيخه حتى مات فلا يترتب على الاعتذار والموافقة شيءٌ جديدٌ في سير الطريق ذاتها، وإنما يترتب عليه جانبٌ أدبيٌّ أخلاقيٌّ بين مريدٍ وشيخِه .

ومنذ تلك اللحظة بدأ الفقيه المقدم يضع الأساسات العملية لمنهجه ورؤيته التي كان من قبل يفكر فيها، بينما توجه المبعوث المغربي إلى وادي دوعن ليكمل رسالته التي وكل بها .

وقد اختلفت الروايات في أسماء الأشخاص اللذين أخذ المغربي عليهم العهد والتحكيم بوادي دوعن . فالذي ذكرته غالب التراجم ومنها « المشرع » و«الغرر» أنَّ المغربيَّ اتجه إلى قَيدون وعمل مع الشيخ سعيد بن عيسى العمودي ما عمله مع الفقيه المقدم من أخذ العهد والتحكيم ولبس الخرقة، وأجمعت كافة التراجم على ذلك ، ثم اختلفت في تحديد بقية الأفراد الذين أخذ عليهم العهد فقيل : إنه التقى بالشيخ باحمران صاحب ميفعة والشيخ باعمر صاحب عُورَة فأدخلهما في سلك التصوف [1] .

---

(١) ذكر صاحب « عرائس الوجود ومرآة الشهود » – مطبوع – فوائد مهمة، فقال بعد أن ذكر أخذ الشيخ المغربي العهد والتحكيم على الفقيه المقدم : ثم اتجه إلى وادي دوعن وسأل عن الشيخ سعيد العمودي، فدُلَّ عليه بناحية قيدون يرعى الغنم، فذهب إليه وأخذ العهد عليه، وألبسه خرقة التصوف، ثم بقي الشيخ المغربي يتنقل في الوادي لنشر الطريقة وعلومها، واختار السكنى بقرية «أصبعون» بوادي دُوعن، وتزوج وأنجب بناتٍ أنشأهنَّ نشأةً صالحة، ولما حضرته الوفاة أرسل إلى كبار مشايخ الطريق الذين أخذ عليهم العهد والتحكيم فجاؤوا إليه وسألوه أن

وجاء في رسالة « الجزء اللطيف في التحكيم الشريف » للإمام أبي بكر العدني ابن عبد اللّه العيدروس ص٢٢٢ من المجموعة العيدروسية ذكر الشيخ بامعبد دون غيره فقال :

الشيخ العفيف عبد اللّه الصالح المغربي وهو الذي أرسله «أبومدين» من أقصى المغرب لتحكيم ثلاثة أولياء أكابر بأرض حضرموت، وقال لهم أنتم ثلاثة جواهر لم تُثقب منهم الفقيه المقدم،

يستخلف من بعده شيخاً يرجعون إليه، فسكت طويلا ثم قال : شيخكم بعدي صاحب السبحة، وقد جعلت ميراثي بينكم أرباعا، وكان ميراثه سبحة وعكازا وقِدْراً ومشعلاً وحبوةً وبسطةً ودلقانا، وأوصى أن يكون الشيخ سعيد وليَّ أمر بناته من بعده، فكان الأمر كذلك، ولما توفي الشيخ المغربي قُسمت التركة بين الحاضرين من مشايخ الطريق فجاءت القسمة على النحو التالي :

١- العكاز والمسبحة للفقيه المقدم .

٢- القدر والمشعل للشيخ سعيد بن عيسى العمودي .

٣- الحبوة والبسطة للشيخ باحمران صاحب ميفعة .

٤- الدلق للشيخ باعمر .

وبهذه القسمة صار مرجع الجميع وشيخهم الإمام الفقيه المقدم، وصار هو أيضا واجهة التصوف ومؤسسه في الوادي، وأعانه الشيخ سعيد بن عيسى العمودي وصار منطويا فيه . انتهى . نقل بتصرف من ((ترجمة الشيخ سعيد بن عيسى العمودي)) لكاتب الترجمة، مطبوع ضمن هذه السلسلة.

وهو جد آل أبي علوي المتوفى سنة ٦٥٣، ومنهم الولي كمال الدين الشيخ سعيد بن عيسى العمودي المتوفي سنة ٦٧١، ومنهم الشيخ محمد بامعبد، وهو جد آل بامعبد [١] .

وبهؤلاء الشيوخ الذين ارتبطوا بالطريقة الشعيبية المغربية بدأت مدرسة التصوف تشق طريقها في وادي حضرموت، إلا أن طبيعة التربية التي نشأ عليها هؤلاء الشيوخ وخاصة الفقيه المقدم والشيخ سعيد جعلت من تصوفهم تصوفاً خاصاً غيرَ متأثرٍ بالمنهج

---

(١) الشيخ محمد بامعبد تَرْجَم له صاحبه « طبقات الخواص » ص٣١٢ ولم يشر إلى أخذه عن الشيخ الصالح المغربي، وكذلك ذكره كتاب « أُنس السالكين في مناقب الصالحين » للسيد باهاورن ص٤٥٠ بما مثاله : الشيخ الكبير صاحب السر الغزير محمد بامعبد، له كرامات ظاهرة، وأحوال باهرة، أذن له الشيخ سعيد العمودي أن يحكم لنفسه دون باقي المشايخ إلخ، وهذه العبارة تدل على أن الشيخ بامعبد من الآخذين على الشيخ سعيد بن عيسى العمودي . انتهى .

وفي ص٤٥٥ ذكر أنه سكن موضعاً يقال له رضوم وتوفي سنة ٧٢٠، وأما الشيخ باعمر « صاحب عورة » فقد ذكره « أنس السالكين » ص٤٦٤ مخطوط بما مثاله : الشيخ باعمر صاحب عورة، له كرامات كثيرة وبركات غزيرة، وهو وأبوه أول من حكمه الشيخ عبد اللّه الصالح وقت أن جاء إلى حضرموت .

الشعيبي ولا بغيره في كثير من المسائل والأمور ، وهذا ما يؤكد تَفَرُّدَ مدرسةِ حضرموت عن غيرها من المدارس .

وقد يتساءل المرء إذا كان الحال كذلك فما فائدةُ ارتباط الفقيه المقدم والعمودي وغيرهم بالشيخ شعيب أبي مدين بواسطة المغربي؟

والجواب الملائم هو أن الفقيه المقدم لم يكن بحاجة إلى منهج يوجِّهُه ويهديه عندما اختار التصوف وسلكه منذ بدايته، وإنما كان محتاجاً إلى سندٍ اجتماعيٍّ وجِهَةٍ عالميةٍ تُؤيد إعلانه لمنهجه وفكرته بين أنداده وأقرانه من أهل عصره، وقد وجدها في ظل تزاحم المدارس والنحل، فأعلن صوفيته ؛ ولكنْ بنَفَسٍ عَلَوِيّ وسلوكٍ سَلَفِيٍّ نبويّ .

كتب السيد العلامةُ المؤرخ محمد بن أحمد الشاطري في «الأدوار» (٢: ٢٥٤): وهكذا انتشر التصوف بحضرموت فيما بعد ولكن بصورةٍ مهذبةٍ منتقاةٍ وبعيدةٍ عن الغلوِّ ومجانبة الشرع.

وكتب السيد العلامة المؤرخ صالح بن علي الحامد في «تاريخ حضرموت»:

لم يكن التصوف بحضرموت مبالغاً فيه ولا على أسلوبٍ رَهبانيٍّ جامد بالغِ الجمود كشأنه في بعض الجهات الأخرى، وإنما كان تصوفاً وسطاً . فمع كونه يدعو إلى الزهادة في مقام الحياة الدنيا وشهواتها، فهو لا ينهى عن اتخاذ الأسباب والعمل بلزومات الحياة والتمسك بالفقه .

وهذا هو التفرد الذي توارثه العلويون وأقرّ به الأحفاد اللاحقون.

وكتب السيد صالح الحامد في « تاريخ حضرموت » : إن أجدادنا الصوفية لم يكونوا كما قد يظن بهم من التخلي عن الأسباب وترك السعي على العيال، بل كانوا بخلاف ذلك، إذ لم يمنعهم التصوف من عمارة واديهم بالزراعة وغرس النخيل حتى صار في تلك العهود جناناً غَنّاء، فقد روى الثِّقات من المؤرِّخين أن الأستاذ الفقيه المقدم كان هو المثل الأعلى في ذلك، كان « يرزُم » أي : يملأ من التمر ثلاثمئة وستين زيراً كل عام من التمر الفاضل عما يُستهلك أيام الرُّطَب، وينفق هذه التمور بعد ذلك على الفقراء وذوي العسرة .

وكتب أيضاً السيد محمد أحمد الشاطري عنهم ما مثاله:

فالعلويون صوفيةٌ إلا أن تصوفهم لم يشغلهم عن إدارة شؤونهم الاجتماعية فضلاً عن العائلية، كمَن نُسب إليه التصوف من الصحابة والتابعين . والعلويونَ صوفيةٌ زُهّادٌ ولكنَّ زُهدَهم لم يمنعهم عن جمع الأموال الطائلة من طُرُقِها المشروعة لإنفاقها في طعامِ الضيف وإكرامهم وفي بناء المساجد والأوقاف عليها وفي بناء السقايات والمَبارد، وفي إقامة المطابخ والزوايا وفي نشر العلم والدعوة إلى اللّه وإصلاح ذاتِ البَينِ والتصدق على المحاويج [1].

لقد أرسى الفقيه المقدم للأجيال اللاحقة « منهجَ عِلمٍ وعَمَلٍ تفرَد به الجميع عن مدارس الواقع والخارج جمُلةً وتفصيلاً، يؤيد هذا القول ما كتبه الإمام الحداد عن طريق السلف في مكاتباته فقال: وأما طريقُنا فلا يحتاج من حيث الإجمال إلى شرحٍ، وإنما هي في الكتاب والسنة والاقتداء بالسلف الصالح لا غير . وبهذه الجملة تفصيلٌ يطول، ولو وجدنا مَن صَدَقَ في طِلْبَتِه ورغبتِه وجِدِّهِ وتشميرِه كما ينبغي من أهل هذا الزمان كنا شرحنا لهم على التفصيل وبيّنّا ما يخُصُّ منها وما يَعُمّ، وما هو الأولى بالبعض وما هو الأولى بغيره » .

(١) محاضرة « سيرة السلف » للحبيب محمد بن أحمد الشاطري ص٢١ .

ونرى فيما كتبه أهل التراجم عن سيرة الفقيه المقدم خلال هذه المرحلة خيرَ شاهدٍ ومقالٍ على التوجه السليم والمقصد الحكيم الذي اختاره هذا الإمام، فقد جاء في ترجمته ما مثاله : كان مجتهداً كـــل الاجتهاد في طاعاته وعباداته، يشغل نهاره بالتدريس مع صـــيامه، ويقوم في الأسحار مواظباً على قيامه سراً وجهراً، إذا ما ختم ختمةً شرع في أخرى، وكان يتعبد الزمان الكثير في شعب النُّعَير[1] .

واتفق أن ولده أحمد تبعه في إحدى الليالي، فلما وصل الوادي ذكر الفقيه اللّه بلسانه وجهر فردَّدَ صدى الذِّكرِ للّه تعالى كلُّ ما في الوادي من شجرٍ وحجرٍ فخَرَّ الولد مغشياً عليه حتى رجع أبوه إليه »[2] .

---

(١) هو شِعْبٌ خارج مدينة تريم .

(٢) المشرع الرَّوِيّ (٢ :٣) .

زي الفقراء وكسر السيف

بدأ الفقيه المقدَّم منذ إعلان صوفيته يوجِّهُ هِمَّةَ أبنائه وأتباعه إلى الاهتمام بالعلم والعمل وتصفية النفس وكَبْحِ رعوناتها، وشحذ الوجدان بالذوق السليم المنبعث من كثرة التلاوة والقيام والصيام وإطعام الطعام للفقراء والأرامل والأيتام، وكسر سَوْرَةِ الشهوات بالمجاهدات والابتعاد عن أهل الجاهات والرياسات مع النصح لهم بالتي هي أحسن، ومخالطة البسطاء من العوام وتلبية حاجاتهم ونصحهم وإرشادهم ودعوتهم لذكر اللّه تعالى في السر والعلانية، وبث روح التحابب والمودة فيما بينهم من صلة الأرحام والقيام بحقوق الجيران وزيارة المريض وتشييع الجنائز والزيارات في ذات اللّه، وعقد حلقات الذكر والاجتماع لها، والتصدر لنشر العلم والدعوة إلى اللّه تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة في المدن والقرى والوديان والجبال، وخاصة عند حَمَلَة السلاح.

ولم تكد الناس تألف هذه المعاملات الأخلاقية وتتأثر بها وتلتف حول داعيتها في مجالس السكينة والاطمئنان، حتى أعلن الفقيه المقدم أمام الناس قراراً جديداً وموقفاً سديداً، كان اتخاذ هذا القرار الحاسم إحدى ثمرات نجاح الدعوة الصوفية المعلنة في واقع الجاهات

والرياسات، وخاصة بعد أن قدم الشيخ سعيد بن عيسى العمـــودي إلى تريم وشد من أزر الدعوة ووطَّد لهـــا وادي دوعـــن ونواحيـــه الأخرى، ووضع يده في يد الفقيه المقدم وانطوى فيه وتأدب له أمام الخاص والعام، واتفقا معا على قرار الحسم الجديد . وكان هذا القرار مكمِّلاً للموقف الأوَّل ومتمِّماً له.

كتب السيد المؤرخ علي بن حسين العطاس في كتابـــه « تـــاج الأعراس »[1] (٢: ١٩٩):

فائدة: اعلم أن سيدنا الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي إنما تَزَيَّا بزيِّ الفقراء وترك حمل السلاح الظاهر لأمور:

منها: أنه دعا لأولاده بأن يكونوا من أهل المقامات والأحـــوال بالسلاح الباطن الذي هو البرهان المبين الحاضر المعبر عن نفـــسه « بسيف القدرة » فأصبحوا هم الملوك وهم أهل الشوكة والحمايـــة، وقد أشار الشاعر بقوله :

مُلُوكٌ على التحقيقِ ليس لِغَيرِهِمْ مِنَ المُلْـــكِ إلا إسْمُـــهُ وعِقابُـــهُ

(١) كتاب مطبوعٌ طبعةً حجريةً مكونٌ من جزئين موضوعه ترجمةٌ شـــاملةٌ للحبيـــب صالح بن عبدالله العطاس (ت ١٢٧٩) وتراجم شيوخه وعلماء وقته وبعـــض أحداث عصره .

الأمر الثاني: أن اللّه سبحانه وتعالى أطلعه على أنهم سوف يكثرون بالجهة الحضرمية، ودولتُها وقبائلُها وأهلُ الشوكة فيها على غير قانون الشريعة، فإنهم يقتلون البريءَ بالجرم ويأخذون مال البريء بذنب غيره، حتى إني رأيتُ أمرَ السلطنة والقبولة من المشقاص إلى الطرية ومن الساحل إلى مأرب جميعَه مبنيّاً على نار جهنم[1] لأنه مخالف قانون الشريعة وموافق لأمر الجاهلية الجهلاء،

---

(١) هذه العبارات التي نقلها الحبيب علي بن حسين العطاس يبدو أنها منقولة من كلام الحبيب علي بن حسن العطاس في كتابه «الرياض المونقة» مخطوط ص٣٢، وفيها زياداتٌ مفيدةٌ ننقلها هنا إتماماً للفائدة، قال رضي اللّه عنه: نظرتُ في قَبْوَلة قبائل أهل الجهة الحضرمية المعروفين بين حدودها المرسية من الساحل إلى مأرب من المشقاص إلى الطرية فإذا هي مؤسسةٌ على النار، وذلك بأنهم إذا قتل إنسانٌ إنساناً بادر أهل المقتول بطلب ثأرهم، فمن وجدوه من أهل القبائل قتلوه، وهذه الطريقة أَعظم من طريقة الجاهلية لأن الجاهلية يقتلون النفس بالنفس، ولهذا الخطر العظيم والمورد الوضيم ترك سلفنا وساداتنا آل باعلوي حمل السلاح فيها، فجزاهم اللّه خيراً لا سيما سيدُنا الفقيه المقدم الذي هو في كل خيرٍ مقدَّم.

قلتُ: وهذا الحال الذي أشار إليه المؤلف من خطر حمل «آل البيت» السلاحَ بنواحي تلك البلاد قد حصل عِياناً، ففي كثيرٍ من مناطق جنوب اليمن قُتل أبناء المهاجر في معارك مع البادية بسبب حمل السلاح، وفي حروب أخرى جرت حروب طاحنة بين «آل البيت» أنفسِهم لما جاوَرُوا البداوة وتقلدوا مثلَهم

فلو حمل السلاح أولادُ سيدِنا الفقيه المقدم في حضرموت لكان منهم لأنفسهم الهلاكُ، ولصاروا أعظمَ ذنباً من غيرهم كما وقع فيه مَن خَلَفَ سيدَنا الفقيه من أولاده وذويه.

الأمر الثالث: أن آخر هذا الزمان المشار إليه بتراكم الفتن والمأمور فيه بكسر السيف نصاً من جد الحسن كما صح في «صحيح مسلم» قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم : « ستكون فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خيرٌ فيها من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ومَن تَشَرَّفَ لها تستشرفْه، ومَن وَجَدَ منها مَلْجَأً فلْيَعُذْ به » وفي رواية : « تكونُ فتنةٌ النائمُ فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظان فيها خير من القائم »، إلى أن قال صلى اللّه عليه وآله وسلم : « يعمد إلى سيفه فيَدُقُّ على حَدِّهِ بحَجَر »، قال الإمام محيي الدين النووي في « شرح صحيح مسلم » :

أما قوله: « مَن وَجَدَ ملجأً »، أي عاصِماً أو مَوضعاً يلتجئ إليه ويعتزل فيه « فلْيَعُذْ به » أي: فليعتزل فيه، وأما قوله صلى اللّه عليه

الأسلحةَ مع الجهل وترك العلم، وعاشتْ أجيالٌ منهم في بلاد العوالق وغيرها على العداوة والأخذ بالثأر والتربص ببعضهم البعض.

وآله وسلم : « القاعدُ فيها خيرٌ من القائم » إلى آخره، فمعناه بيانُ عظيمِ خطرها والحثُّ على تجنبها والهرب منها ومن التسبب في شيء منها، وإن شرَّها وفتنتَها تكون على حسب التعلق بها، وأما قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم : « يَعْمَدُ إلى سيفِه فيدقُّه على حدِّه بحجر » فالمرادُ كسرُ السيف حقيقةً على ظاهر الحديث لِيَسُدَّ على نفسه بابَ هذا القتال، وقيل هو مجَازٌ والمُراد ترك القتال، والأول أصح .

الشيخ سعيد بن عيسى العمودي

نتقل في تعريفنا لهذا الفصل ما قد تيسر لنا جمعه بفضل اللّه في كتابنا ((ترجمة الشيخ سعيد بن عيسى العمودي)):

اشتهر بين الناس إطلاق تسمية خزانة آل باعلوي على المشايخ آل عمودي منذ أن تم الاتحاد الروحي بين العَلَمينِ الشهيرين حاملَيْ لِواءِ الطريقة الصوفية بحضرموت كلها.. الإمام والأستاذ الأعظم الفقيه المقدم والشيخ المبجل المكرم سعيد بن عيسى العمودي، وبهذه الألفة الروحية والتحابب الذوقي في ذات اللّه تعالى صار الشيخ

سعيد بن عيسى رافداً وسنداً لقرارات ومواقف سيدِنا الفقيه المقدم، بل كان الشيخُ سعيدٌ الرافدَ الأساسيَّ والمعادلَ المكملَ لتنفيذِ سيدِنا الفقيهِ المقدمِ قرارَه الحاسمَ « بكسر السيف » كرمزٍ للتحـــولِ مـــن مظاهرِ الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك العهد، إلى طريق الخمول وترك الرياسات، والاعتناء بديلاً عن السيف بالعلم والعمل أساساً للفكرة الجديدة التي اصطبغ بها تَوَجُّهُه الروحي.

ويعود أساس التنمية كما ذكرها كتاب « الـــشامل في تـــاريخ حضرموت»[1] إلى ما صار إليه – أي : إلى الشيخ العمودي – من تراث الفقيه وسره وما حازه ببركة صحبته حـــتى قـــال الحبيـــب جعفر بن أحمد الحبشي في قصيدة مدح فيها الشيخ سعيد:

فِيهِ مَكْنُونُ سِرِّنا آلِ علـــوي أَخبَرَتْنا بِذا الثِّقـــاتُ شِـــفاها

---

(١) « الشامل في تاريخ حضرموت » كتابٌ تاريخيٌّ عامٌّ للسيد علوي بن طاهر الحداد طُبِعَ مرةً واحدةً ولم تَكْمُلْ طباعته، وضاعتْ كثيرٌ من أوراقِـــه خـــلال الطبـــع خصوصاً في وسط الكتاب وآخره وذلك بسبب الحرب التي أشعلها الهولنديون في جاوه، وكان الكتاب آنذاك تحت الطبع واستطاع البعض أن يحتفظ منه ما بقـــي إلى الآن.

ولا يعني هذا أن الفقيه المقدم قد نـــزع بـــالعلويين إلى الجهـــل والضَّعَة عندما أخذ بهذا الطريق كما يَظُنُّ بعض الأحفاد، وإنما كان للفقيه هدفان أساسيان : أحدهما سياسي، والآخر ديني واجتماعي.

فالهدف السياسي لخّصه لنا السيد المؤرخ محمـــد بـــن أحمـــد الشاطري في «أدوار التاريخ» فقال : كـــان الحُكّـــام الـــسياسيون بحضرموت في عصره وفيما قبلَه ينظرون إلى العلويين نظرةً ينافسون فيها عليهم المكانةَ التي يحتلونها في القلوب ويَخشَونَ من شـــعبيتهم على مُلْكِهم فيُحيطونهم بسياجٍ من الرقابة ويضيقون عليهم الخناق، وهو نفس ما جرى ويجري مع آبائهم وإخوانهم العلويين من بـــني أمية وبني العباس والحكام الآخرين، وقد عرف الفقيه المقدم بنفسه كلَّ ذلك في أسرته، فقد اضطُرَّ جدُّه صاحبُ مِرباطٍ إلى الهجـــرة نتيجةَ تلك المضايقة، كما شاهد بنفسه ما لاقاه عمه علوي شـــقيق أبيه من آلامِ السُّمِّ الذي دَسَّه له حاكمُ تريمٍ القحطاني.

ولهذا فإن تَقَلُّدَ السلاحِ معناه إذ ذاك في نظر الآخرين المسلحين الاستعداد لهم والمقابلة، ولا بد من الاصطدام يوماً بين القِرْنِ وقِرنِه ثم بين الأبناءِ كما بين الآباء عداوةٌ متوارثةٌ وأخذٌ بالثأر مستمرٌّ كما هو واقع بين القبائل. فرأى الفقيهُ المقدمُ البعيدُ النظرِ القضاءَ علـــى

الشر من جذوره، واختيارَ طريقةِ التصوف المعتدل، وحَمَلَ بيـــده العُكّازَ الذي يرمز إلى التصوف بدلاً عن السيف الذي يرمز وقتئـــذ إلى النهب والسلب والإجرام وطلب الحكم والثأر والانتقام[1].

وأما الهدف الديني والاجتماعي فهي كما بينه المؤرخ الشاطري أيضا في ((الأدوار)) بقوله:

مما أجمعتْ عليه المصادرُ أن الفقيه المقدم نـــزعَ الـــسلاح بـــل وكسر سيفه، ودعا قولاً وعملاً إلى نـــزعه ليقضيَ على القَبَلِيَّـــة، وبرهنَ فعلاً على وجوب التعايشِ السلميِّ والأخـــوَّةِ الإســـلامية والمذهبيةِ والوطنيةِ بين قبائل الشعب وقطاعاته، وعلى أن ســـلاح العلم والإيمان والأخلاق هو أقوى الأسلحة في المجتمع وأمضاها في قيادة الأمة وتوجيهها إلى حياة السعادة والخير والتقدم[2].

ومن هذا المضمار الحيوي كان موقف الفقيه المقدم موقفاً هامـــاً ومصيرياً شجاعاً، وكان أيضا موقفُ الشيخ ســـعيد بـــن عيـــسى

---

(١) ((أدوار التاريخ)) (٢: ٣٠٤-٣٠٥) .

(٢) المصدر السابق (٢: ٣٠٤) .

العمودي في مساندة القرار لا يَقِلُّ شجاعةً وأهميةً عـــن صـــاحب القرار ذاته.

وتشير كتب التاريخ أن أجزاء السيف المكسور لا تزال محفوظةً منذ ذلك الحين لدى المشايخ «آل العمودي» مع بعض آثار الفقيه الأخرى التي آلَتْ إلى الشيخ بوصيةٍ من الفقيه المقدم عند وفاته كما هي عادة الصوفية في مرض الموت يوصون لأبنائهم ومريديهم بشيءٍ من اللباس وغيره إشارةً للوراثة عنهم والخلافة، ولا زالـــت هـــذه البقايا والآثار محفوظة في «قيدون» إلى اليوم تحت رعاية القـــائمين على مقام وزاوية الشيخ سعيد بن عيسى العمودي[١] من أحفاده.

---

(١) سُمي الشيخ سعيد بالعمودي بعد أن حمل راية التصوف في الوادي، والذي يظهر أن آل باعلوي في ذلك العصر أطلقوا عليه التسمية تشريفاً له خلال إحدى زيـــاراتهم لشعب نبي اللّه هود، وإلى ذلك تشير قصيدة الإمام عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر السكران في قوله :

والشيخ سعيد قد أســقي عنـــد الـــنبي هـــود وتسمى بالعمود

أما صاحب كتاب «عرائس الوجود ومرآة الشهود في ترجمة الشيخ سعيد» فقد أشار إلى أنه لُقِّب بالعمودي لما كان رحمه اللّه مكثراً للصلاة ومحافظاً عليها؛ إذ هي عماد الدين وأفضل قُرَبِ العبد في حضرة المناجاة، بل ورد في الحـــديث: «رأسُ الأمر الإسلامُ وعمودُه الصلاة»، فسمي الشيخ سعيدٌ لذلك عمودَ الـــدين

أسانيد الاتصال.. وسلسلة الوصال..

من أهم ما يعتني به رجال العلم عموماً مسألة الأسانيد، وهـــي أساسُ بلوغِ حقيقةِ العلمِ وصورتِه من جيل إلى جيل، وكل علمٍ لا يستند على تسلسلٍ في الأخذ والرواية يُعَدُّ علماً مبتورا، ولهذا كان سلفنا الصالح على غايةِ الاهتمام بأنسابهم وأسانيدهم .

والأسانيد عند السلف وسيلةٌ لمعرفة الأصل والمنشأ الذي يتصل به العالِم أو المحدث أو الأصولي أو الصوفي، وهي أيضاً مَلْحَظُ أمانٍ وتَثَبُّتٍ من خطر التخبط والإفك الذي يُدخله الكاذبون في عقـــول الناس باسم العلم ورجاله، ومن لا سَنَدَ له لا علم له ولو كان مـــن أكثر الناس اطلاعاً ومعرفةً .

ومن هذا المنحى اعتنى السلف بأسانيدهم الخاصة وأســـانيدهم العامة في كل الفنون[1] .

من حيث اصطلاح أهل الجهة بنقل ((العماد)) إلى ((العمودي)) .

(١) اعتنى بعضُ السلف بحضرموت بجمع الأسانيد وطرق الرواية في كل ما يتعلق بالقرآن والحديث والسيرة والتصوف وغيرها عبر طبقاتهم، ومن أهم المؤلفات المتوفرة في هذا العلم ((البرقة المشيقة في أسانيد الطريقة)) للسيد الشيخ علي بن أبي بكـــر الـــسكران (ت ٨٩٥) مطبوع، و((الجزء اللطيف في التحكيم الشريف)) للـــسيد أبي بكـــر العدني العيدروس (ت ٩١٤) الذي نقلنا عنه في هذا الكتاب مطبوع، و((السلسلة

العيدروسية)) والمسماة أيضا ((الطراز المعلم)) للحبيب شيخ بن عبدالله العيدروس (ت ٩٩٠) مخطوط في ثلاثة مجلدات ضخام، وكذلك ((النفحة القدوسية بواسطة البَضعة العيدروسية)) للسيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) جمع فيها أسانيد شيخه السيد عبدالرحمن بن مصطفى العيدروس (ت ١١٩٢) بعد أن أشار عليه بذلك مخطوط، ومثله ((فيض الأسرار)) للشيخ عبدالله بن أحمد باسودان (ت ١٢١٣) مخطوط، وثبت الحبيب شيخ بن محمد الجفري (ت ١٢٢٢) ((نتيجة أشكال قضايا مسلك جوهر الجواهرية)) مخطوط، والثبت الحفيل ((كنز البراهين)) له أيضاً مطبوع، وثبتُ المسند الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي (ت ١٣١٤) المعروف ((بعقدِ اليواقيت الجَوهريّة))، مطبوع، ومثله له ((عقود الآل في أسانيد الرجال)) مطبوع، وكذا ((منحة الفتاح الفاطر في أسانيد السادة الأكابر)) مطبوع، وكذلك الثبت البديع ذي الدوائر والمشجرات ((العقود اللؤلؤية)) للسيد الحبيب أبي بكر بن شهاب (ت ١٣٤١) مطبوع، وثبتُ المسند الحبيب محمد بن سالم السري (ت ١٣٤٦) مخطوط، وأيضاً ((العقد الفريد في ضبط وتقييد ما وصل إليه الإمام شيخ الإسلام الحبيب أحمد بن محسن الهدار (ت ١٣٥٧) صاحب المكلا من الأسانيد)) للحبيب عبدالله بن أحمد الهدار مطبوع، وثبت الحبيب محمد بن حسن عيديد (ت ١٣٦١) - ذكر فيه شيوخه الذين قاربوا الأربعمئة - ((تحفة المستفيد في من أخذ عنهم محمد بن حسن عيديد)) مخطوط، وكذلك ((منحة الإله في الاتصال ببعض أولياه)) للمسند الحبيب سالم بن حفيظ (ت ١٣٧٨) في طريقه للطباعة، وغيرها مما لا زال رهين الخزائن الخاصة يسر الله من يقوم بإخراجها .

وبالنسبة لأسانيد «خرقة التصوف» فقد وصلت إلى سيدنا الإمام الفقيه المقدم من طريقين ذكرها صاحب «العقد النبوي»[1] بما مثاله:

واعلم أن النسبة المذكورة المباركة للشيخ المشهور، الفقيه المذكور، في لبس الخرقة الشريفة، لها طرقٌ كثيرةٌ من جهة الكسب والظاهر، وطرقٌ كثيرةٌ من الإشارة والكشف الباهر، فمن طرقه من جهة الكسب المعتاد أنه لبس الخرقة من طريقين :

الطريق الأول: هو الطريق الذي لم يُشهر، وهو أن الفقيه تأدب بأدب أبيه الشيخ علي، وهو تأدب بأبيه الشيخ الإمام المحقق والحبر المدقق الشيخ محمد المقبور «بمرباط ظفار» القديمة ابن الشيخ علي، والفقيه محمد هو من مشايخ الشيخ سعيد بن علي والشيخ علي بن عبدالله الظَّفاريّانِ في علم الشريعة، والشيخُ الإمامُ صاحبُ مرباط المذكورُ[2] تأدَّبَ بوالدِه الشيخِ الشريفِ السُّنّيّ عَلَويٍّ ابنِ الشيخ علوي الشهير بخالعِ قَسَم، والشيخُ علوي بنُ محمدٍ تأدَّبَ بأبيه الشيخِ الشريف محمدِ بن عَلَوِيّ، والشيخ محمد بن علوي ابن الشيخ

---

(١) «العقد النبوي» ص٢٧٩ .

(٢) وقد ترجمنا للإمام صاحب مرباط ضمن هذه السلسلة.

عبداللّه تأدَّبَ بأدب أبيه الشيخ الحبيب النسيب السُّنِّي عَلَوِيٍّ ابـــن الشيخ عُبيدِاللّه ابن الشيخ أحمدَ، والشيخ علوي بنُ عُبيداللّه تـــأدَّب بأبيه الشيخ الولي عُبيداللّه ابن الشيخ أحمد بن عيسى، والشيخ عبيد اللّه [1] تأدَّب بوالده الشيخِ الكبير أحمد بن عيسى، وأحمد بن عيسى هذا، هو الذي خرج إلى حضرموت من البصرة، والشيخ أحمـــد[2] تأدب بأبيه الشيخ عيسى بن محمد ابن الإمام علي العُريـــضِي ابـــن جعفر الصادق، والشيخ عيسى تأدب بوالده الشيخ محمد بن علي، والشيخ محمد بن علي تأدب بأبيه الشيخ نور الدين علي العريضي، والإمام العريضي تأدب بأدب والده الإمام محمد الباقر، ومحمد الباقر تأدب بوالده الإمام علي زين العابدين، والإمام علي زين العابـــدين تأدب بوالده سبط الرسول نجل البتول الشهير الإمـــام الحـــسين، والإمام الحسين تأدب بوالده أمير المؤمنين علي كرم اللّه وجهـــه، والإمام علي تأدب بالنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، والنبي صـــلى اللّه عليه وآله وسلم يقول : «أَدَّبني رَبِّي فأَحْسَنَ تأديبي».

(١) وقد ترجمنا له مع أبنائه الثلاثة: بصري وعلوي وجديد ضمن هذه السلسلة.

(٢) وقد ترجمنا له ضمن هذه السلسلة.

الطريق الثاني: وهو الطريق المشهور، فإن الشيخ الفقيه المقـــدم لبس الخرقة الشريفة من رسول الشيخ شعيب أبي مـــدين بإذنـــه، والشيخ أبو مدين أخذ الخرقة من الشيخ أبي يعزى، وأخذ الـــشيخ أبويعزى عن الإمام أبي الحسين علي بن حِرْزِهِم، وأخذ أبو الحسن المذكور عن الإمام القاضي أبي بكر محمد بن عبداللّه بـــن عـــربي المَغافِرِيّ، وأخذ القاضي المَغافِرِيّ عن الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وأخذ الإمام الغزالي عن شيخه إمام الحرمين عن والده أبي محمد الجويني، وأخذ الجويني عن الشيخ أبي طالب المكي[1]، وأخذ الشيخ أبو طالب المكي عن الشيخ الشِّبْلِي، وأخذ الـــشبلي عـــن الأستاذ أبي القاسم الجنيد، ولبس أبو القاسم الجنيد من يـــد خالـــه الشيخ سَرِيُّ السَّقَطِيّ، ولبس الشيخ سَرِيُّ السَّقَطِيّ من يد معروف الكَرْخِي، ولبس معروفٌ الكَرْخِي من يد داود الطـــائي، والـــشيخ داود لبس من الشيخ حبيب العجمي، ولبس حبيب العجمي من يد الحسن البَصْرِي، ولبس الحسن البصري من يد علي بن أبي طالب،

---

(١) وهنا تفرَّع سندُ اتصالٍ آخرَ، حيث أخذ الإمام الشريف علوي بن عبيد اللّه بـــن أحمد المهاجر عن الشيخ أبي طالب المكي وقرأ عليه في علوم التـــصوف «قـــوت القلوب» بمكة المكرمة.

وعلي بن أبي طالب عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أخذ عن جبريل عليه السلام وجبريل أخذ عن اللّه عز وجل.

والشيخ معروف طريق أخرى من جهة «آل البيت» رضي اللّه عنه، تأدب بأدب موسى بن علي الرضا، وعلي بن موسى تأدب بأدب والده موسى الكاظم، وموسى الكاظم تأدب بأبيه جعفر الصادق، وجعفر الصادق تأدب بأبيه محمد الباقر، ومحمد الباقر تأدب بأبيه علي بن زين العابدين، وعلي بن زين العابدين تأدب بأبيه سبط الرسول وبَضعته الحسين، والحسين تأدب بأبيه الإمام علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه، وعلي بن أبي طالب تأدب بأدب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1]. انتهى ما ذكره صاحب «العقد النبوي».

---

(١) مطلبٌ في تحقيق «سند الخرقة الصوفية» عند سادتنا العلويين:

كتب الإمام أبو بكر العدني ابن عبد اللّه العيدروس في كتابه «الجزء اللطيف في التحكيم الشريف» ص٥-٦ من «المجموعة العيدروسية». بما مثاله: ومما أخبرني به شيخي الإمام العالم العامل العلامة جمال الدين محمد بن عبد الرحمن السَّخَاوي

- وكلا روايتيه منه - إجازةَ مكاتبةٍ بيني وبينه - أعني السخاوي - قال في كتابه الموسوم «بالمقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألــسنة » حديث لبس الخرقة الصوفية وكون الحسن البصري لبسها من علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه :

قال ابن دحية وابن صلاح أنه باطل، وكذا قال شيخنا -وهو الحافظ ابــن حجر- أنه ليس في شيء من طرقها ما ثبت، ولم يرد فيه حــديث صــحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لبس الخرقة على الــصورة المتعارف بها بين الصوفية لأحد من أصحابه، ولا أمر أحداً من أصــحابه بفعــل ذلك، وكل ما يروى في ذلك صريحا فباطل.

وقال السخاوي : « ثم إن الكذب المفترى قول من قال : « إنَّ علياً ألــبس الخرقة الحسنَ البصري »، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن البصري من علــيٍّ سماعاً فضلاً عن أن يلبسه الخرقة، ولم ينفرد شيخنا بهذا بل سبقه إليه جماعة .

وقال أيضا بعض الفقهاء : لا يصح لُبسُ الحسنِ البَصْري من علي رضي اللّه عنه فإنه ما رآه إلا أنه نقل الذهبي في «تهذيب التهذيب» - وهو من أكابر الأئمة المحدثين وحفاظ المحققين - أن الحسن البصري ولد لسنتينِ بَقِيَتا من خلافة عمــر ورأى عثمان وعلياً وطلحة، وحضر يوم الدار في قصة عثمان، وعمره أربع عشر سنة، ولقد صدق لأن خلافة عمر رضي اللّه عنه عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وخلافة عثمان رضي اللّه عنه أحد عشر سنة وإحدى عشر شــهرا وثمانيــة عشر يوما .

وقال الذهبي أيضا : إن الحسن البصري روى عن عثمان وعلي وعمران ابن

الحصين ومعقل بن يسار وأبا بكر وأباموسى الأشعري وابن عباس وعمرو بن تغلب وجندب بن عبد اللّه بن عمر وخلقاً كثيراً من العلماء رضي اللّه عنهم أجمعين .

قلتُ : ومما يؤيد قول القائلين برؤية الحسن البصري علياً رضي اللّه عنه ما نقله الإمام شيخ الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه « الإحياء » المكنى بأعجوبة الزمان لَمَّا ذكر نهيَ السلف عن الجلوس للقُصّاص في المسجد وأورد ما صدر من السلف في حقهم فذكر أن علياً رضي اللّه عنه أخرج القُصّاص من جامع البصرة، فلما سمع كلام الحسن البصري لم يُخرجْهُ ؛ إذ كان يتكلم في علم.

قلتُ: وهذا دليل على رؤية الحسن البصري لعلي .

وعلى الحقيقة – وإن لم يثبت فيها حديثٌ صحيحٌ على ما ذكره شيخنا السخاوي وجماعة من الحفاظ – فإنها بدعة حسنةُ القصد فيها صحبةٌ لأولياء اللّه وإظهارُ شعارِ الفقر، وإن لم يرد في كيفية الخرقة فقد ورد ما يؤيد الصحبة كما اشتهر عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم في المبايعة لأصحابه من الرجال والنساء، والتحكيم في حق الفقير شِبْهُ المبايعة كما ذكره صاحب «العوارف» . اهـ عن « الجزء اللطيف » ص٦–٧ .

ووسع الإمام العدني في « الجزء اللطيف » البحثَ حول الخرقة ولُبْسِها وكذلك التحكيم بما يفيد الراغب من فوائد بحثه ص٦–٨ من « الجزء اللطيف » ص٢١٢–٢١٤ من « المجموعة العيدروسية » فكتب عن إلباس المشايخ للخرقة وما ترمز إليه وكذلك التحكيم ومفهومه بما مثاله مختصرا:

قال السهرودي في الباب الثاني عشر من « العوارف » في شرح خرقة

المشايخ الصوفية : لبس الخرقة ارتباطٌ بين الشيخ والمريد، والتحكيم بين الشيخ والمريد سائغ في الشرع لمصالحَ دنيوية، فهل يُنكرُ المُنْكِر في لُبسِ خرقة على طالبٍ صادقٍ في طلبه يقصدُ شيخاً بحسنِ ظنٍّ وعقيده يُحكِّمُه في نفسه ومصالح دينه يرشده ويهديه ويعرفه طرائق المواجيد ويبصره بآفات النفوس وإفساد الأعمال ومداخل الشيطان فيلبسه الخرقة، علامة التفويض والتسليم ودخوله في حكم الشيخ ودخوله في حكم اللّه وحكم رسوله وإحياء لسنة مبايعته صلى اللّه عليه وآله وسلم.

يؤيده حديث الوليد بن عبادة بن الصامت قال أخبرني أبي عن أبيه قال: «بايعنا الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق حيث كان، ولا نخاف في اللّه لومة لائم »، ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقةُ عَتَبَةُ الدخول في الصحبة، والمقصودُ الكليُّ هو الصحبةُ، والصحبةُ تجمع للمريد كلَّ خير . اهـ.

ثم تابع في » الجزء اللطيف » النقلَ عن « العوارف ».بما مثاله:

قلتُ : ولا خفاء بأن لبس الخرقة على الهيئة التي تَعْتَمِدُها الشيوخ في هذا الزمان في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وهذه الهيئة والاجتماع لها من استحسان الشيوخ، وأصله من الحديث ما رويناه، والشاهد لذلك أيضا التحكيم الذي ذكرناه، وأنه اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أتم وآكد من الاقتداء للّه في دعاء الخلق إلى الحق، وقد ذكره اللّه تعالى في كلامه القديم في تحكيمِ الأمةِ رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وتحكيمِ المريدِ شيخَه إحياءً لسنة ذلك الحكيم، قال تعالى : ﴿ فلا وربِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مما قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾

انتهى.

وقال المؤلف الإمام أبو بكر العدني ابن عبد اللّه العيدروس عن شيخه الحافظ السخاوي : ولم ينفرد شيخنا بهذا بل سبقه إليه جماعة، وذكر أن المنكرين لحديث الخرقة لبسوها وألبسوها كشيخنا الدمياطي والذهبي والهكاري وابن حبان والعلاء المعلاطي والعراقي وابن الملقن والأنباسي والبرهان الحلبي وابن ناصر الدين، وقال بعد ذلك: وإنكاري لحديثها مع إلباسي إياها لجماعةٍ من أعيان الصوفية امتثالٌ لإلزامهم لي بذلك تُجاهَ الكعبة المشرفة تبركاً بذكر الصالحين واقتضاءً لمن أثبته من الحفاظ المعتمدين . اهـ.

قلتُ: فهذا مما يؤيد الخرقة ولُبسَها وإن أنكر المنكرون أصل حديثها، وهي بدعةٌ حسنة كما حدثت بعد الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بدعٌ كثيرة، وقد ذكر العلماء رضي اللّه عنهم أن البدع على الإطلاق ليست بمستنكرةٍ كما أحدثت جماعةٌ من الفقهاء لُبسَ الطَّيلَسانِ على العمامةِ وقالوا : « ليس بحرام ولا مكروه » ولم يصح عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة والتابعين لُبسُه، وكذلك لبس الخرقة ليس بحرام ولا مكروه، بل تجد فيه ما يؤيِّدُ من الأحاديث الصحيحة كما مر من التحكيم وحديث المبايعة والإلباس.

ونقل الإمام العدني أيضا في « الجزء اللطيف » صفة التحكيم الوارد عن مشايخ الصوفية ص٢١٧ من « المجموعة العيدروسية ». بما مثاله : وصورة التحكيم أن يضع المتحكِّم يده في يد الشيخ ثم يقرأ آيةً من آيات الرجاء ويقول الشيخ بعد ذلك : رَضِيتَ بي شيخاً ؟ أو : بالشيخِ فلانٍ شيخاً ومؤدباً يدعوك إلى ما دعاه اللّه ورسوله وينهاك عما نهى اللّه عنه ورسوله ؟ فيقول : رضيت، وسواء كان التحكيم لواحد أو لجماعة، ثم يدعو، فإن اقتصر على ذلك أجزأه، ويستحب

للشيخ أن يزيد بعد الفاتحة وآية : «اللّهم اجعل هذه الأيدي متصلةً بحبلك المتين الذي لا ينقطع، محصنةً بحصنك المنيع الذي لا ينصدع، واجعل هذه الصحبة مقرِّبةً في الدنيا والآخرة . ثم يقول للمتحكِّم : أسلمتَ وجهَك للّه تعالى ؟ فيقول: نعم، ثم يقول له : رضيتَ بي شيخاً ومؤدبا ؟ فيقول: رضيتُ، ثم يقول الشيخ : يجمعنا الكتاب والسنة وتفرقنا الضلالة والبدعة، اللّهم اجعلنا ووالدِينا وأولادنا من المفلحين المنجحين المستبشرين المطمئنين الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، اللّهم بمن تاب إليك فقبلتَه، واستغفرك فغفرتَ له، وسألك فأعطيته، واستجارك فأجرته، اللّهم قرِّبنا بقربك، واجعلنا من حزبك، وأنّسنا بأُنسِك، واغفر لنا يا خير الغافرين برحمتك يا أرحم الراحمين . اهـ .

وأفاد المؤلف نماذجَ عديدةً من صور التحكيم وأخذ العهد، ثم ذكر ص٢٨ ما ذكره المشايخ عن تعدد الخرقة، حيث قال بعضهم : هي خرقتان : خرقةُ تعريفٍ وخرقةُ تشريف، قال الإمام العدَني نقلاً عن شيخه الرّدّاد: نحن نقول بتوفيق اللّه: الخرقة حقيقتها واحدة وإن تعددت بيد المتمسكين ؛ لأنها سبب بين اللّه وبين العباد ولا تعدد كالعروة للمتمسكين والحبل للمعتصمين، وكما أن الحبل والعروة لا يتعددان، فكذلك الخرقة لا تتعدد ؛ لأنها صورت بمعنى ارتباط ما بين العبد وبين الحق تعالى، والناس في هذه المعاني متفاوتون على حسب ما هم به من الحق وما هو به معهم، والشيخ يد اللّه في أهل إرادته، وسره بين أهل طاعته، وهي من حيث رسوم الأحكام خرق ثلاث :

- خرقة مجازية، وهي خرقة التأليف، وهي للمحبين المتشبهين، وبها يتألّفون مشاهدَ الطريق.

- خرقة جوازية، وهي خرقة التعريف، للمريدين المتمسكين، وبها يتعرفون

وأما قوله عن لبس الخرقة : « بطرق كثيرة من الإشارة والكشف الباهر » فيعني ما يفتح اللّه به على الفقيه المقدم مــن الاتــصال في المنامات بالرؤيا الصالحة وما يتمثل بالروح الخيرة كالملائكة وأرواح الأولياء الصالحين التي يأذن اللّه بها بشيء من الظهور للعباد والزهاد وأهل الرياضات والمجاهدات الصالحة في بعض الأحايين، وقد ثبت في الصحيح حركة الأرواح بأمر اللّه تعالى وظهورها في أحوال لمن هيأه اللّه لذلك، كما ظهرت أرواح الأنبياء لسيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في ليلة الإسراء والمعراج، وإذا كان المعترضون يقولون : إنَّ ليلةَ الإسراء والمعراج حالةٌ خاصةٌ بالرسول صلى اللّــه

على شواهد الهداية والتوفيق.

- خرقة إجازية، وهي خرقة التصريف، للّهداة الراغبين، وبها يتــصرفون في معاقد أحكام العلم.

والتحقيق : الخرقة الأولى لطلابها رعاية، وخرقة الطبقة الثانيــة لأصــحابها هداية، وخرقة الطبقة الثالثة لأربابها ولاية.

وقولنا في الخرقة الأولى : إنها مجازية، فهو لعدم تحقق إلباسها بحكمها.

وقولنا في الخرقة الثانية: إنها جوازية،هو الجواز المزيد لها على منــهاج حكمهــا وعلمها.

وقولنا في الخرقة الثالثة : إنها إجازية، هو لِيَصِلَها بحكم الإجازة لوليٍّ رسمِها. اهــ . ص٢٢٨ .

عليه وآله وسلم ليكون حجتّهم على حصر العلـم في المـستوى الظاهر للعين، فما بالهم عندما يعلمون أن صحابياً ضرب خيمتَـه على مكانٍ من الأرض فسمع من يقرأ بسورة تبارك، فقـال لـه الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم : «إنه رجلٌ كان يقرأ بها في الدنيا فأُعطِيَها في قبره »أو ما في معناه، والسماع للـصوت مـن جنس «عالم الروح» ولم يَبْهَتِ النبيُّ صلى اللّه عليه وآلـه وسـلم السامعَ ولم يُكذِّبه ولم يتشككْ في أمر انكشاف الأمر له أهو روحٌ صالحة أم من شيطانٍ ؟ لعلمه صلى اللّه عليه وآله وسـلم بـصدق الرجل وأمانته .

ولهذا فسوف يكون تعليلُنا لهذه الظواهر النادرة من باب علمنـا وتأكدنا صلاح هؤلاء وصدق علاقتهم بربهم، حيث لا يسوغ منهم الكذب ولا ما هو أقل منه، ولا ينبغي بعد تمام العلم والتثبت عـن حال مَن ذَكَرْنا خصوصاً آلَ البيتِ النبوي الشريف الذي شهد لهم القرآن والسنة بالتطهير أَنْ نَبْهَتَهُمْ كما هو قول المُتَعَنِّتِينَ المُحْـدَثِينَ اليوم عند تحليلهم لهذه الظواهر المـشكِلة علـيهم واختلاطِهـا في مفهومهم ووُهُومِهم، بما يجريه اللّه من اسـتدراجٍ علـى أيـدي الشياطين والأرواح الخبيثة للكهنة والسحرة والمشعوذين وأصحاب

الطلاسم والعلوم المحرمة في الإسلام، وأنها من الدَّجَل والاستحضارات، وشتان بين هذا وذاك.

فالمستدرجون بالسحر والشعوذة والجنِّ وما شاكل ذلك لا يكونون قدوةً للناس في التسليك والتأديب والتهذيب والمجاهدات الروحية العالية، من صلاة وصيام وتهجد وقيام، وتلاوة قرآن وأذكار، وتبتّل للملك العلاّم آناء الليل وأطراف النهار.

المستدرجون بالطَّلْسَم والمِنديل والتنجيم حَكَمَ القرآنُ والسنةُ بكذبهم ومروقهم لما هم عليه من الفسق والخذلان، أما أولياؤه المتقون وعباده الصالحون فكراماتهم صحيحةٌ وكشوفاتهم أكيدة، ولا تتعداهم أو تخرجُ عن نطاق دائرتهم في المشابهة والمماثلة، وهي أيضاً لا تُخرِجُهم عن بَشَرِيَّتِهم وضَعْفِهِم وافتقارِهم لربهم في كلِّ أحيانهم، ولا يصح لنا بأيِّ حالٍ من الأحوال أَنْ نَخْلِطَ الأمور ونُعَمِّمَ الأحكام، ونُهوِّلَ التصورات ونوهمَ الجيل المخدوع بأن الولاية ومظاهرها دعوىً وزورٌ، فالحقيقة دائماً إنما هي مفتقرةٌ للتمييز والتفصيل من خلال معرفة الضوابط والشواهد والدَّلالات حيث لا إفراط ولا تفريط.

مدرسة التصوف بحضرموت وضوابطها الشرعية

لا خلاف اليوم ونحن بين يدي فتن آخر الزمان ((جوهراً ومضموناً)) أن نجد العداء المبرمج ضد المدارس الصوفية والمذهبية وشرف آل البيت النبوي، فقد استحكم في قلوب الناشئة وقلوب الجيل الأوسع من ضحايا المدرسة الحديثة بكامل نماذجها العلمية والتربوية دينية وعلمانية وإلحادية، وليس بوسعنا أن ندافع عن الحق ونبينه بهدوء وروية بعد أن غمر الباطل بدخانه عقول الغالبية العظمى من الناس ؛ لأنه قدر وقضاء ؛ وليس بوسعنا أيضا أن نبرئ مدرسة التصوف بكافة نماذجها على ممر التاريخ من الخطأ أو الغلو والوقوع في مذمة العادات ؛ ولكننا نستطيع أن نقول كلمة الحق بتوفيق اللّه، ونصيح في وجه الباطل بعون اللّه، ونضع النقاط على الحروف ليتمعن المخدوعون قراءة الكلمات واضحة بينة، وفهم المعاني جلية حسنة، فرب قارئ حرف قبل وضع نقطته ينخدع في الفهم والاستنتاج، ورب كاتب حرف أوهم الناس بحرفته أنه جدير بأسباب العلاج، وبين هذا وذاك يكمن جيش الحق وأدواته ووسائله ومسائله.

ومن داخل هذه البينية المحاطة بــالإفراط والتفــريط والكــذب والتخليط أَدْخُلُ بك إلى معسكرات الإيمان حيث يقف المؤمنــون مبتهلين إلى اللّه راجين رحمته خائفين من عذابه، شاهدين النعم في كل صامت وناطق، خائفين النقم مع كل رعد وبارق، تعال معي أيها القارئ نطرق بيت ساداتنا « بني علوي » وقد كتب على باب مدرستهم:

وإنَّ الَّذي لا يَتْبَعُ الشَّرْعَ مطلقــاً على كُلِّ حالٍ عبدُ نَفْسٍ وشَهْوَةِ
صريعُ هوىً يُبْكَى عليــه لأنــه هُو المَيْتُ ليس المَيْتُ مَيْتَ الطَّبيعَةِ
وما في طريقِ القومِ بدءٍ ولا انتــها مخالفةٌ للشرعِ فــاسمعْ وأَنْــصِتِ
وخَلِّ مقــالاتِ الــذينَ تَخَبَّطُــوا ولا تَكُ إلا معْ كتــابٍ وسُــنَّةِ
فثَمَّ الهدى والنورُ والأَمْنُ مِن ردىً ومِن بِدعَةٍ تُخْشى وزيغٍ وفتنــةِ [١]

كتب صاحب « المشرع الروي » ص١٦٣ : اعلم أرشدنا اللّــه وإياك إلى سواء السبيل أن من أعظم العلوم نفعا، وأكثرها لخــيري الدنيا والآخرة جمعا، وأشدها في حياة القلوب وقعا، معرفة ســير أولياء اللّه العارفين، الذين بأفعالهم وأقوالهم على اللّه دالين، فيحصل

---

(١) ديوان الإمام الحداد ص٣٨ الطبعة الأولى .

بذلك حسن الظن بهم ومحبتهم الموصلة إلى أعلى المراتب؛ لقوله صلى اللّه عليه وآله وسلم : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »، وجاء عن السلف الأولين : « إِنَّ الرحمةَ تَنزلُ عندَ ذِكْرِ الصّالحين »، وقد أوجب اللّهُ على عباده المؤمنين أن يسألوه في الصلاة التي هي عِمادُ الدِّينِ أَنْ يهديهم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأمر اللّه تعالى حبيبَه محمداً صلى اللّه عليه وآله وسلم في كتابه بالاقتداء بأحبابه، وأخبره بفائدة أمناء رسله والاطلاع على أخبار الماضين من قبله، فقال تعالى : ﴿ وكُلاًّ نَقُصُّ عليكَ مِن أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَك »، ولذا قال سيدُ الطائفة أبو القاسمِ الجُنَيدُ رحمه اللّه تعالى : الحكاياتُ جُنْدٌ مِن جُنودِ اللّه تعالى يُقَوِّي بها قلوبَ المريدين، وقال : التَّصديقُ بعِلْمِنا هذا وِلايةٌ صغرى، وقال بعض العارفين : التصديقُ بالفتح لا يكون إلا بفتح، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ ومَن لم يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فما لَهُ مِن نُور ﴾ .

وتفاضُلُ الناسِ بعضِهم على بعضٍ أَظْهَرُ مِن أَنْ يَحتاجَ إلى دليلٍ، وتفاوتُهم فيه ولو بالسعي والاجتهاد غَنِيٌّ عن التعليل، وليس ذلك

إلا بقَدْرِ تحصيلِهم للعلوم والمعارف، كما يظهر ذلـــك للمتأمـــل العارف.

ولما كان العمرُ أَقْصَرَ من أَنْ يحُيطَ بكلِّهـــا جملـــةً وتفـــصيلا، ويستقصيَ أصلَها علماً وتحصيلا، وجبتِ المنافـــسةُ في الأَنْفَـــسِ، الموصلِ إلى المحَلِّ الأقدس، ولا ريبَ عند ذوي الطبع الـــسليم، أن طريق السنة هو الصراط المستقيم والمنهج القويم، وكان المـــسلمون بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم تتـــسمى أفاضِـــلُهم في عصرهم بسِمَةِ الصُّحْبَة ؛ لشرفها على كل وصف، ثم تسمى مَـــن أدركهم بالتابعين.

ثم لما بَعُدَ عَهْدُ النبوةِ وتوارى، واختلفت بعد ذلك الآرا، انفـــرد خواصُّ أهلِ السنة بصالح الأعمال وســـني الأحـــوال، واشـــتهروا بالصوفية وصار ذلك رسماً مستمراً، وخبراً مـــستقرا . واختلفـــت عباراتُهم في تعريفه، وأحسن الأقوال فيه ما قالـــه الإمـــام حجـــة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي اللّه عنه، وهو : «تجريـــدُ القلـــبِ تعالى إلى اللّه واحتقار ما سواه »، وأما تعريفه بمعنى العلم فهـــو : «علمٌ بأصولٍ يُعرَفُ بها صلاحُ القلبِ وسائرِ الجوارح»، قال الحافظ السيوطي : وكثير من الناس يظن أن من مارس كتب الصوفية وقرأ

شيئا منها وعلق يسمى صوفيا، وليس كذلك، وإنما التصوف علـــم الحال لا علم القال، وهو أن يتخلق بمحاسن الأخلاق الــتي وردت بها السنن النبوية .

وقال بعض أئمة التصوف : ((هو علمٌ مركبٌ مـــن الحــديثِ وأصول الدين))، فمن تضلع منهما وعمل بما علم وكان اعتقـــاده صحيحا كان صوفيا، ولقد كان سلفنا ((بنو علوي)) لهذه الطريقة سالكين، وبعلمهم عاملين، فأنفقوا نفيس العمر الفاضل مبتعــدين عن العوارض والشواغل في تتبع سنة الرسول صلى اللّه عليه وآلــه وسلم والعمل بها، وكلما عمل إنسانٌ بسنةٍ رقّاه اللّهُ تعالى إلى فعلِ أخرى لم يكن يعمل بها، قال الجنيد رحمه اللّه تعالى : ((الحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، والسيئة بعد السيئة عقوبة السيئة))، فعملـــوا بواجب الخدمة على حسب الطاقة البشرية وسوابغ المدد الربانيـــة، وأكثروا من العبادات وترك الشهوات، وإذا جَنَّ الظلام، قاموا على الأقدام، وافترشوا وجوههم، وجرت دموعهم، وإذا كبر أحـــدهم طوى بساط المنام وتجنب مخالطة العوام إلا لحاجة أو ضرورة، وإذا خالطهم لذلك كان على حذر من المخالفات، وإذا مرض أحدهم ولم يعده صاحبه رأى له الفضل بذلك، وإذا لم يجتمع بأحد في يوم

عَدَّهُ من الأعياد[1]، وكان بعضهم يخرج إلى الجبال والأودية يتعبـــد اللّه فيها ليلا ونهارا وبعضهم ليلا ويصبح في داره كبائتٍ فيه[2] ومع ذلك يواظب على الجمعة والجماعة أول الوقت إلا لعذر شـــرعي، وبعضهم يقطع نهاره في التدريس والإفتاء ويستغرق أوقاته في نفـــع الناس وقتاً فوقتاً وإذا وقعت مشكلةٌ تتبع كـــلام العلمـــاء فيهـــا واستقصى أمرها حتى يعطيَها حقَّها ويعرفَها، فإن شك فيها توقف عن الإفتاء بها، وإن ظهر الحق على خلاف ما قاله أو أفتى ذهب إلى من أفتاه واعترف بالرجوع إلى الحق.

---

(١) المقصود هنا بعدم اجتماعه بأحدٍ، أي: جلوسه عنده في منـــزله أو في موقع عبادته خصوصاً من عوامِّ الخلق الذين لا يعرفون قيمة للأوقات، أو من أهل الأمر والنهي والجاه والسلطان، أما غير ذلك فهم يختلطون بالناس في مـــساجدهم وأســـواقهم ومواقع العلم والتدريس وغيرها ؛ ولكنه لا يعطلُ وقتاً من تلك الأوقـــات الـــتي حرصوا فيها على ترتيب عاداتهم وعباداتهم .

(٢) وهذه نماذجُ لبعضٍ دون بعضٍ، حتى لا يستعجلَ الحكمَ أبناءُ زماننا تأثُّراً بـــأبواقِ المعترضين الذين يتَّهِمون الصوفية أمثال مَن ذكرنا بالرهبنة والانطواء وما شاكلها من التُّهَم، وكون البعض يفعل الشيء دون بعض مسألةٌ بديهيـــة لا تحتـــاج إلى اعتراض ؛ لاختلاف حال الناس ووظائفهم، أما الأمـــر المـــستقبح أن يكـــون ((الجميع)) على صفةٍ معينةٍ، ففيه بلا شك تعطيلٌ كثيرٌ للواجبات الأخرى .

وكان لهم اعتناءٌ تامٌّ بكتب الإمام الغزالي لا سيما «الإحيـــاء» و«البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز» و«الخلاصة»، وكان لهم اعتناء تامٌّ بالحديث وبلغ كثير منهم رتبة الحفاظ [1]، إلى أن قال: وبما تقرر يُعلم أن السادة بني علوي حازوا شرف النسب من جهاته الثلاث، فقد قال الإمام الغزالي شرف النسب من ثلاث جهات:

إحداها : الانتماء إلى شجرة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، فلا يعادله شيء .

الثانية : الانتماء إلى العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء صـــلوات اللّـــه وسلامه عليهم .

---

(١) حذفنا بعد هذه الفقرة استطراداتٍ عن قواعد السلوك عنـــد «بـــني علـــوي» للاختصار ؛ ولكن بما أن في بعضِ هذه القواعد إيضاحاً لمسائل الخمول والعزلـــة عند بعض متأخريهم ألحقناها في الحاشية بما مثاله :

ولما رأى المتأخرون في زمانهم ما أنذر به الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم من علاماتٍ وآياتٍ ما كانت تقع فيما مضى كالتَّعلُّم لغير العمل والتفقه للدنيا، والشُّحِّ المُطاعِ والهوى المتَّبع، ووُلِّيَ الأمرُ غيرَ أهله، وظَهَرَ الفُحشُ من كلِّ جاهل على قَدْرِ جهله، وغيرِ ذلك مما وردت به الأحاديث تركوا الإفتـــاء والتـــدريس والتأليف – والمقصود الغالبية وليس كلهم – وأقبلوا على خاصَّةِ أنفسِهم، ورأَوا أن ذلك هو الأهم، وهو في الحقيقة اشتغالٌ بالمعنى المعبر عنه بالدراية، وهو أفضل من المبنى الذي يقال له الرواية . اهـــ من «المشرع الروي» ص١٦٤ .

الثالثة : الانتماء إلى أهل الصلاح والتقوى .

وكانوا يخُفونَ العبادةَ خوفاً من الرياء، وإذا تكلَّمَ أحدُهم في الوعظِ أو غيرِه وخاف الرياءِ عَدَلَ إلى غيرِه مما لا يدخلُه ذلك، وإذا طرقَه البكاءُ في تلاوةٍ أو قراءةِ حديثٍ صرفه إلى التبسم . ولا يذُمُّ نفسَه في الملأ، وإذا بلغه أن أحداً من الأعيان عزم على زيارته في يوم درسه تركه(١)، وإذا دخل على غفلةٍ كره ذلك وأوجز، وكانوا رضي اللّه عنهم زاهدين في الدنيا والرياسة فيها قانعين بالكفاف منها، ولا يفرح بشيء أقبل من الدنيا ولا يحزن على شيء أدبر منها، وربما انشرح صدرُه إذا صُرِفَتْ عنه إلخ ،

وكانوا يكرهون ادِّخارَ القُوتِ إيثاراً لفراغ اليد من الدنيا على إمساكها، وقد يدخر بعضهم على اسم عائلته تأسياً بفعله صلى اللّه عليه وآله وسلم، أو تسكيناً للاضطراب الذي ربما يقع، أو اتهاماً للنفس، ويقدِّمُ كلٌّ واحدٍ منهم كسبَ الحلال على سائر مهماته، وينفق المال في إطعام الجائع وكسوة العاري ووفاء الدَّين، وكان ينفق المال ولا يمسكه .

---

(١) المقصود بالأعيان : أهل السلطان والحكم والمظهر الدنيوي التي يجري على أحكامهم الظلم والبطش .

وكان كلٌّ واحدٍ منهم يخدِمُ الضيفَ بنفسِه، ويأكل مع خادمه وعبده، ويحمل بضاعته من السوق، ويصافح الغني والفقير، والصغير والكبير، والشريف والوضيع، ويسلم على كل مَن لَقِيَهُ، ولا يرى أن له عندَ اللّهِ حالاً ولو بلغ من الأعمال ما بلغ، بل ربما يحسب أنه يستحقُّ العقوبة لما يشهد فيها من سوء الأدب بالنسبة لجناب اللّه تعالى، وكلما ترقّى في المقامات رأى أنه أَهْوَنُ خَلْقِ اللّه اهـ[1].

كانت هذه الضوابطُ -ومثلُها وشبهُها كثيرٌ- مبثوثةً في العديد من مصنفات السلف الصالح، وهي قاعدةُ المدرسة الصوفية التي وضع أساسها الأستاذُ الأعظم الفقيه المقدم، وجعلها مدرسةَ اعتدالٍ وقصدِ ذاتِ تَفَرُّدٍ مَنهجِيٍّ يتلاءمُ مع مفهوم الحديث النبوي : ((وإني تاركٌ فيكم الثقلين : كتابُ اللّه حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض وعترتي أهلُ بيتي، وإن اللطيفَ الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض يوم القيامة، فانظروا فيما تخلفوني فيهما))[2].

---

(١) المشرع الروي ص١٦٥ باختصار .

(٢) هذا الحديث الصحيح يدعو الأمة إلى إقامة كتاب اللّه واتباع منهج العترة الشريفة التي أوصى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الناس باقتفائهم، ثم أَكَّدَ في الحديث – حتى لا ينفعلَ بعضُ المُدَّعِينَ ويُقَيِّدُوا الأتباعَ بما يفتح لهم ثغرة الحيلة والخداع

وإذا كان الإمام المهاجر - وهو أحد كبار أئمة أهل البيت - اتخذَ في القرن الرابع قراراً يخُرِجُ به ذريته وأهلَه وبعضَ أتباعه عن حمى فتنِ عصرِه بالعراق، فكانتِ الهجرةُ إلى حضرموت، فقد كان قرارُ الفقيه المقدم باحتضانِ المنهجية الصوفية الأخلاقيةِ أيضاً قرارَ

والتلبيس على الناس - فقال : « وإنَّ اللطيفَ الخَبير أخبرني أنَّهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوضَ » فيا سبحان اللّه ! هذا حكمٌ قطعيٌّ للدلالة بعدم الافتراق بين كتاب اللّه نصاً وحكماً وتشريعاً وبين السنة النبوية التي يكون أهلُها وحُماتُها ودعاتُها بضمانة اللّه تعالى العترة الشريفة، لمن أرادوا الاعتراف وصدق الاتباع .

وعلى هذا الحكم القطعي تكون اختياراتُ ((بعض شيوخ العترة)) كالفقيه المقدم، وانتهاجُه طريق التصوف بالصورة التي أوضحتْها كتبُ السلف هو أصلٌ من أصول الاتباع لا الابتداع .

وقد أعجبني ما كتبه الدكتور محمد علي البار العلوي في مقدمته على ((الرسالة الذهبية)) للإمام علي الرضا بما مثاله بعد إيراده حديث الثقلين : ((والغريبُ حقّاً أنَّ حديثَ الثقلينِ هذا رغمَ ورودِه في ((صحيح مسلم)) وفي ((سنن الترمذي)) وحسنه، والحاكم النيسابوري في ((المستدرك)) و((مسند الإمام أحمد)) إلا أن معظمَ المعاصرينَ من العلماءِ الخطباء يجهلُه أو يتجاهله، ويوردونَ بدلاً عنه حديث : « إني تاركٌ فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُم به لن تَضلُّوا بعدي أبدا : كتابَ اللّه وسنتي » وهو في ((موطأ مالك)) وفي سندِه ضعفٌ وانقطاعٌ وإن كان متنه ومعناه صحيحا ! وكان من الواجب إيراد الحديثين كليهما معاً لأهميتها في الباب . أَمّا كِتمانُ هذا الحديثِ الشريفِ الصحيحِ فهو من كتمان العلم إلخ.

حَسْمٍ يتناسب مع الظرف والزمان والمكان، ويظل هـــذا القـــرار وثمراته ساريةَ المفعولِ ما دام في الواقع مَن يُدْرِكُ معانيَهـــا ويَفْقَـــهُ مدلولاتِها، وينشأُ ويتربى على شيءٍ من تلك الضوابط الأخلاقيـــة الرائعة .

إن قراراً يبدأُ بفردٍ في مجتمع مليءٍ بالعلماء والمحدثين والفقهـــاء، فينتج عن هذا القرار تحول الجميع من رؤيةٍ فكريةٍ إلى أخرى لَدلالةٌ واضحةٌ على سلامة التحول وصدق القرار وواقعيته، ثم إنه قـــرارٌ سليمٌ وصحيح، والدليلُ على ذلك أن الشيخَ بامروان – وهو الفرد الوحيد الذي عارض فكرة التحول – إنما كان هَمُّـــهُ في الأصـــل شخصيةَ الفقيهِ الفَذَّة، حيث قال له : ((وقد رَجَوْنا أَنْ تَكُونَ مثلَ ابنِ فَورَك))، والفقيهُ لم يكن في ذهنه مقامُه وحالُه ومـــستقبلُه وإلا كان بإمكانه أن يُرضيَ شيخه ويحقق له الحلم الذي كان يرجـــوه، وإنما كان يحملُ هَمَّ جدِّه الإمام المهاجر يوم تحمَّل البعدَ عن الوطن والمال والجاه في سبيل هذه العترة الشريفة .

لقد تبين أن الواقعَ آنذاك كان يُفْهِم ويُعْلِم أَنَّ اختياراتِ أهـــلِ البيت النبويِّ وتحوُّلِهم من أمر إلى أمر يُلزم البقيةَ أن تكونَ تبعاً لهم؛

لأنهم سُفُنُ النجاة عند الفتن والبلايا والمحن، فتبعهم الناسُ.. كلُّ الناس.

إن مدرسة الفقيه المقدم أثبتت بجدارةٍ على مدى القرون المتتابعة أنها من أفضل المدارس الإسلامية في الواقع العالمي كله، وكيف لا تكون كذلك ورائدها وقائدها وشيخها إمامٌ من أفضل أئمة البيت النبوي في عصره ؟ جمع اللّه له بين العلم حتى بلغ به رتبة الاجتهاد، وبين الحلم حتى جذب به المخالفين والموالين على طريق العباد والزهاد، إنها مدرسة وصف الإمام الحداد رجالها فقال :

وأصولُنا وشيوخُنا من سادةٍ — عَلَوِيَّةٍ نَبَوِيَّةٍ فاسمعْ وعِي
الشيخُ نورُ الدينِ ثَمَّ محمدٌ — ويليه عيسى ذو المحلِّ الأرفعِ
وأحمدْ وعبدُ اللّهِ مع عَلْوِيِّهِمْ — بَصْرِيِّهِمْ وجَديدِهِمْ مهما دُعِي[1]
وسليلِ عَلْوِيٍّ على منهاجِهِ — وسليلِه فمُسَلِّمٌ في المَرْكَعِ[2]
رَدَّ الرَّسُولُ عليه مثلَ سلامِهِ: — «يا شيخُ» فاعجَبْ للفخارِ الأَجْمَعِ

---

(١) أحمد المهاجر وولده عبد اللّه وبصري وجديد أبناء عبيد اللّه بن أحمد المهاجر.

(٢) هو محمد بن علوي، ثم ولده الإمام علوي بن محمد المشار إليه بأنه «على منهاجه» ثم سليله علي خالع قسم الذي رد الرسول صلى اللّه عليه وسلم عليه السلام .

وَنَــزيلِ مِربــاطٍ إمــامٍ جــامعٍ أصلٍ لأشياخِ الطريقِ مُفَــرِّعِ[1]
وبَنِيه خُصَّ إمــامَهم أســتاذَهُمْ شيخِ الشيوخِ العارفِ المتوســعِ[2]
وتــلاهُ عَلْــوِيٌّ أتــى بعَلِــيِّهِمْ وعفيفِهمْ ومحمدِ المــستودع[3]
ووجيهِ دينِ اللّهِ سَــقّافِ العُــلا والفخرِ والمحضارِ يُسْرِعُ إِنْ دُعِي[4]
والعَيدَرُوسِ القُطْبِ سُلطانِ المَــلا وأخيهِ نورِالدينِ شيخِ المَهْيَــعِ[5]
ومحمدِ القَوّامِ صــاحبِ رُوغَــةٍ ونــزيلِ عَيديدِ الفقيهِ الأَوْرَعِ[6]

---

(١) سيدنا الإمام محمد بن علي المتوفي بمرباط من أرض ظفار سنة ٥٥٦ .

(٢) شيخ الشيوخ هو سيدنا الفقيه المقدم المترجَم له في هذه الترجمة .

(٣) علوي المعروف بالغَيور، توفي سنة ٦٦٩، وأما أبناء علوي الغيور علي وعبد اللّه المشار إليه بالعفيف، ومحمدٌ المشارُ إليه بالمستودع هو محمد بن علي مولى الدويلة، توفي سنة ٨١٩ .

(٤) سقّافُ العلا هو الشيخ عبد الرحمن السقاف بن محمد مولى الدويلة، تــوفي ســنة ٨١٩، وأولاده أبو بكر السكران وعمر المحضار، توفي الــسكران ســنة ٨٢١، وتوفي المحضار سنة ٨٣٣ ساجدا بتريم .

(٥) هو السيد الإمام عبد اللّه بن أبي بكر، لُقِّبَ بالعيدروس، وهو اسم من أسماء الأسد كما ذكره الإمام الزبيدي في ((تاج العروس))، وتوفي سنة ٨٦٥ .

(٦) صاحب رُوغَة هو الشيخ العلامة محمد بن حسن بن محمد بن حسن بن علي بــن الفقيه المقدم، ورُوغة قرية شرق تريم، توفي سنة ٨٤٥ .

ومحمـــدٍ ذاك الفقيـــهُ وصِـــنْوِهِ　　ألشَّيخِ نُورِ الدِّينِ أُنْسِ المَرْبَـــعِ[1]

ومحمـــدٍ ذاك المُعَلِّـــمُ زاهـــدٌ　　ومجاهدٌ فيهم عظـيمِ الموقـــعِ[2]

والعَدَنِي البَحْرُ الخِضَمُّ أخي النَّدى　　وكذا الوجيهِ المُتَّقِيِّ الأخـــشعِ[3]

وسليلِ علويٍّ بأحمدَ جَحْـــدَبٍ　　والشيخِ شيخٍ ذي المحلِّ الأرفعِ[4]

وسليلِه ذاك العفيـــفِ وصِـــنوِهِ　　الحـــبرِ عبـــدِالقادرِ المُتَـــضَلِّعِ[5]

---

(١) محمد بن علوي بن أحمد ابن الفقيه المقدم، تـــوفي ســـنة ٧٦٧، وأمـــا صـــنوه – أي:أخوه – فاسمه علي ، وقد توفي بمكة المكرمة .

(٢) محمد المعلِّم المراد به الشيخ الشريف العلامة محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بـــن الفقيه المقدم، توفي سنة ٨٢٢ بتريم، وهو المكنى بأبي مُرِّيم .

(٣) هو الإمام أبو بكر العدني بن عبد اللّه العيدروس توفي بعدن ودفـــن بهـــا ســـنة ٩١٤هـــ، وأما قوله (وكذا الوجيه) فهو الشريف عبد الرحمن بن علي بـــن أبي بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف توفي بتريم سنة ٩٢٣ .

(٤) هو الشيخ الشريف أحمد بن علوي ابن المعلم محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابـــن الشيخ عبد اللّه باعلوي، عُرِف بجده جَحْدَب، توفي سنة ٩٧٣، وأما الشيخ شيخٌ فهو شيخُ بنُ عبد اللّه بن شيخ بن شيخ عبد اللّه العيدروس صـــاحب ((العقـــد النبوي))، توفي بأحمد أباد سنة ٩٩٠ .

(٥) العفيف هو عبد اللّه بن شيخ بن عبد اللّه العيدروس ســـليل صـــاحب ((العقـــد النبوي))، توفي بتريم سنة ١٠١٩، وأما صنوه فهو الشريف عبد القادر بن شـــيخ صاحب تاريخ ((النور السافر))، وله مؤلفات عديدة، وذكر صـــاحب ((شـــرح العينية)) أن ولادته كانت في ربيع الأول ٩٧٨، توفي سنة ١٠٣٨رحمه اللّه .

والشيخِ أبي بكرٍ سلالةِ سـالمٍ   ذي الفخرِ والجاهِ الفسيحِ الأوسع[1]

هذه النماذج المذكورة في قصيدة الإمام الحداد شفعها بنمـاذج أخرى في ذات القصيدة وفي قصائد أخرى، وكلُّها تنبي عن مدرسةٍ ذاتِ مَقامٍ عظيم.

المآخذ المحسوبة على التصوف ومو قف مدرسة الفقيه المقدم منها

وجب علينا ونحن نكتب ترجمةَ الإمام الفقيه المقدَّم بلُغَة عـصرِنا ولجيلِنا من أحفادِه وأتباعِ مدرسته والمنتسبين إلى منهجه، بـإدراك وعلم أو بحكم الوراثة والتقليد، أَنْ نـزيحَ عن وَجْهِ هذه المدرسـة ومنهجها ما يحاوله المُغْرِضُونَ عمداً أو يُروِّجه المنتفعون قـصداً، أو يتحدث به المخدوعون في عصرنا، وما ينسبونه مـن تحريـف أو تشويه أو ابتداع أو فساد في التوجه في منهج التصوف والـصوفية،

(١) الشيخ أبوبكر بن سالم « صاحب عينات »، ولد سنة ٩١٩، وتوفي سـنة ٩٩٢ بعينات.

متخذين من إفراط بعض الصوفية وغلو بعض الأتبـــاع ومفـــاهيم بعض العلماء حجةً قاطعةً على ما حكموا به وقرروه .

والحقُّ في ذاته قويٌّ بحجته، ويظل كذلك حتى يوسَّدَ الأمـــر إلى غير أهله، فعندها تنقلب الموازين والأقيسة رغماً عن الحق وأهلـــه، ويصير الحق باطلاً بالأدلة، ويصير الباطل حقاً بالأدلة، وعند ذلـــك يجب التَّثبُّتُ في كلِّ حكمٍ وتقدير.

والتصوف بكونه علماً وأخلاقاً وأدباً وسلوكاً أمـــرٌ مـــضبوطٌ بالكتاب والسنة، وهو الأساس والقاعدة، ومن شذ عنها بإفراطٍ أو تفريطٍ فلا ينطوي أتباعُ المدرسة كلِّها بتهمته، ولا يحاسبون بزلتـــه ولو كان من شيوخها، ويجب حسن الظن بالجميع، وقـــد صـــنف العديد من العلماء قديماً وحديثاً كتباً ورسائلَ عديدةً تجلو كثيراً من الإشكال المستحكِم في عقول البعض دون البعض حول التـــصوف والصوفية، وبرغم أننا في هذه الترجمة لن نتناول التصوف بعمومه، ولن نشرح غوامضه وما هو عليه، وإنما سنأخذ طرقاً خاصةً بمدرسة فيه، هي مدرسة الاعتدال والقصد .

والقصدُ والاعتدال أصلٌ من أصول الملة الإسلامية سواء في علوم التصوف أو في غيرها، وكما بنى إمامنا الفقيه المقدم مدرستَه علـــى

هذا المنهجية المعتدلة فقد سبقه كثير من المعتدلين ؛ ولكنهم يمثلون نهجا ملائما لزمانهم ومكانهم ضمن مدرسة التصوف عامة التي هي جزء من منهج أهل السنة والجماعة، يقول الإمام الجنيد سيد الطائفة عن منهج عصره وسلوك طريق التصوف آنذاك : ((طريقتنا مضبوطةٌ بالكتاب والسنة، وإذا رأيتم الرجل تنخرق له العادات وتتواتر منه الكرامات فانظروا حاله عند الأمر والنهي، فإن قام بهما فوليٌّ كامل، وإلا فلا عبرة له عند الأولياء، ومن لم يُؤْمَنْ على الأدب الشرعِيّ كيف يُؤْمَنُ على سر الولاية المرعِيّ ؟))[1].

وهذه قاعدة الاعتدال ، والتصوف الصحيح يهدف إلى تكوين شخصية الكتاب والسنة بمفهوم عَمَلِيٍّ مع أخذ الاعتبارات للزمان والمكان[2]، وغالب المعترِضين على التصوف الصوفية إنما يعترضون على التَّرَسُّمِ الكاذبِ والادعاء بالأحوال والمقامات ممَّن لا خَلاق له، أو ممن يتخذها غرضاً للرزق والحيلة والعبث بعواطف الناس، وهي

---

(١) عن ((المشرع الروي)) (١: ١٦٤) .

(٢) المقصود باعتبارات الزمان والمكان : الخمول والعزلة عندما يجب أن تكون كموقف يربط بين الصوفي وربه، ويعزل بين الصوفي والظلم الاجتماعي المتضافر عليه، والجهاد والحركة عندما يدعو داعيها الجميع .

أيضا مادةُ التهمةِ الإعلاميةِ الغَرَضِية التي يدندن عليها المُعادُون للمنهج الصوفي كلِّه . وهذه السلبيات حيثما وجدت تُعتبر تِرَةً ونقصاً على فاعلها ولا تُعتبرُ حجةً على فساد المنهج ذاته، فهناك من يدعي معرفتَه لعلم الحديث أو العقائد أو التفسير أو علوم التربية والآداب، وهو يتحذها غرضاً لأهدافه ومصالحه، أفتكونُ دعواه حجةً لمن أراد أن يتهمَ المنهج الإسلامي بأنه فاسد، لأن زيداً وعَمْراً كان مسلماً فاسداً أو محدثاً فاسداً ؟

إن التصوف في حدِّ ذاته علمٌ، وقد تناول العديد من المنصفين تعليلَ مظاهره وأصلها الإسلامي، قال المؤرخ ابنُ خلدون في ((مقدمته)) عن التصوف العام : هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصلها العكوف في العبادة والانقطاع إلى اللّه تعالى والابتعاد عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد مما يُقبل عليه الجمهورُ من لَذَّةٍ وجاهٍ ومالٍ، والانفرادُ عن الخَلْقِ في الخلوة للعبادة، وكان عاماً في الصحابة والسلف، فلما نشأ الإقبالُ على الدنيا بعد القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

وفي مدرسة حضرموت يوصف الصوفي والصوفية بهذا النعت الذي أثبته الإمام العيدروس في كتابه «الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر» حيث قال : « الصوفي العالَم باللّه هو الذي يضع الأشياء في مواضعها ويدبر الأحوال والأوقات كلها بالعلم، ويقيم الخلق مقامهم ويقيم الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي الأمور من مواضعها بحضور عقل وصحة وتوحيد وكمال معرفة ورعاية وصدق وإخلاص، وهم أهل الشريعة والطريقة والحقيقة» [1] .

وإمامنا الحداد في « القصيدة العينية » أبرز لنا منهجَ السلف وطريقهم وهو طريق الكتاب السنة ممثلةً في مدرسة الفقيه المقدم بحضرموت، وهاهو يقدم ضوبط الطريق في هذه الوصية :

والقصدُ ذِكْرُ نَصِيحَةٍ ووصيَّةٍ ... للنَّفْسِ والإخوانِ إذ كانوا معي
تقوى إلهِ العالَمِينَ فإنَّها ... عِزٌّ وحِرْزٌ في الدُّنا والمَرْجِعِ
فيها غِنى الدّارَينِ فاستَمْسِكْ بها ... والْزَمْ تَنَلْ ما تَشْتَهِيهِ وتَدَّعِي
والزُّهْدُ في الدنيا الدَّنِيِّ متاعُها ... دارِ الوباءِ فما بها مِن مَرْتَعِ

(١) الكبريت الأحمر ص٦ من « المجموعة العيدروسية » .

تُلهِي عن الأخرى ولا تَبقَــى ولا تَــصْفُو بحــال فاجتنبْهــا أو دَعِ

وعليكَ بالصبرِ فــلا تَعْــدِلْ بــه شيئاً وبالشكرِ الأَتَــمِّ الأَوْسَــعِ

والخوفِ للّهِ العظــيمِ وبالرجــا فكلاهما مثــلُ الــدواءِ الأنفــعِ

والصدقُ والإخلاصُ للّه احــتفِظْ بهمــا فإنهمــا عِمــادُ المَــشْرَعِ

والتوبــةُ الخَلْــصَاءُ أَوَّلُ خطــوةٍ للــسالكينَ إلى الحِمــاءِ الأَمْنَــعِ

وبــمُــرِّ ما يَقْضِي الإلهُ وحُلْوِهِ كُنْ راضياً ومِنَ التَّوَكُّلِ فــاكْرَعِ

ولصالحِ النِّيّــاتِ كُــنْ مُتَحَرِّيــاً مستكثراً منها وراقــبْ واخــشعِ

واقنعْ بميسورِ المعــاش ولا تُطِــلْ أمــلاً وعمّــا لا يَحِــلُّ تَــوَرَّعِ

واحذرْ من الكبرِ المــشومِ فإنــه داءٌ ومن عُجْبٍ وشُــحٍّ مُهْلِــعِ

ومن الرياءِ فإنه الــشِّرْكُ الخَفِــيْ ومِنَ التَّفَحُّشِ شيمةِ العبدِ الــدَّعِيّ

والنَّفْسَ رُضْــها بــاعتزالٍ دائــمٍ والصمتِ معْ سَهْرِ الدُّجَى وتَجَوَّعِ

وهواكَ جاهِدْهُ جهــادَ منــازِعٍ ومخالِفٍ مثــلَ العَــدُوِّ الأَبْــشَعِ

واعمُرْ بأورادِ العبادةِ عُمْرَكَ الــ ــفاني وساعاتِ الزمانِ المُزْمِــعِ

واتلُ القرآنَ كَلامَ رَبِّــك دائمــاً بتَــــدَبُّرٍ وتَرَتُّــــلٍ وتَخَــــشُّعِ

والذِّكْرَ لازِمْــهُ وواظِبْــهُ علــى مَرِّ الزمانِ معَ الحــضورِ الأَجْمَــعِ

فهو الغذاءُ لكــلِّ قلــبٍ مُهْتَــدٍ وهو الدواءُ لكلِّ قلــبٍ مُوجَــعِ

وعليك بالصَّلْواتِ فاعرفْ حقَّها ومكانَها من دِينِ ربِّك واخـضعِ
واحسِنْ محافظةً عليها واحْـضُرَنْ فيهـا ولا تَغْفَـلْ ولا تَتَـوزَّعِ
والصومِ والزَّكْـواتِ والحَـجِّ إلى بيتِ الإلهِ فقُمْ بفَرْضِكَ واسْـرِعِ
واعلمْ بأنك عن قريـبٍ ميِّـتٌ فاذكُرْ مَماتَك واخْشَ سُوءَ المَصْرَعِ
واذكُرْ بأنك عن قليـلٍ صـائرٌ في بطنِ قـبرٍ مـن فَـلاةٍ بَلْقَـعِ
ومن القبورِ إلى النشورِ لِمَحْـشَرٍ والوزنِ والجسرِ المَهُـولِ الأشـنعِ
ثُـمَّ المـصيرُ لجنـةٍ ونعيمِهـا أو حرِّ نارٍ والعـذابِ الأَفْظَـعِ[1]

هذا هو منهج التصوف عند أهله ورجاله، وهذا الـذي عليـه المعوَّل .

الضوابط المميزة بين الكرامة للولي والاستدراج للمدعي

كما صار الخَلْطُ والتشويشُ في هذا العصرِ حولَ مسألةِ الصوفيةِ والتصوف فقد امتدَّ التشويش إلى كثير من ثمرات العمـل الـصالح ومظاهر رجاله من الصالحين، وكان من نتائج هذا الخلط المتعمَّـد

(١) ديوان الإمام الحداد ص١٧٩-١٨١ الطبعة الأولى.

والتشويش المبرمج تساوي الكرامةِ التي تصدر من أولياء اللّه بالدجل والسحر والشعوذة الجارية على أيدي أولياء الشيطان، حتى صار الجيل المخدوع لا يُصَدِّقُ بثمرات الأعمال الصالحة في الأولياء، فضلاً عن تأييد صدورها أو بروزها على أيدي مَن يشاء اللّه له ذلك .

ومجاراةً للزمان وأهله، ورِفقاً وإشفاقاً بهم حتى لا يَبْهَتُوا الحقَّ ويستقبحوه أَلْزَمْنا أنفُسَنا في هذه الترجمة تجاوزَ كرامات الصالحين، وإذا لَزِمَ الحالُ أو اضطُرِرنا لذكرِ شيءٍ منها شفعناها بالتعليل والتحليل حتى لا تصبح خارجة عن حد البرهان والدليل، وقد استوفينا البحثَ في هذه المسألة في كتاب «شروط الاتِّصاف في مَن يطالِعُ كتبَ الأسلاف كالمَشْرَعِ والغُرَرِ والتِّرياقِ والجوهر الشَّفّاف»، وهو بحثٌ لا يستغنى عنه راغبٌ في معرفة الحق بلسان أهل هذا العصر، ومنه نستقي إيضاح الضوابط التي وضعناها عنواناً لهذا الفصل في هذه الترجمة .

الكرامات والخوارق

تعتبر الكرامات إحدى ثمرات الطاعة للعبد المسلم إذا صدق مع اللّه، وليست لازمةً له، والثابتُ عن المتقدمين من السلف الصالح بحضرموت خاصةً أنهم كانوا لا يهتمون بالكرامة بكونها مطلباً من مطالب الطاعة ولا شرطاً من شروط الولاية، وإنما يُؤْثَرُ عنهم قولهم: «الاستقامة أعظمُ كرامة»، وإذا ما أجرى اللّهُ سبحانه وتعالى شيئاً من الخَرْقِ للعادة على يد أحدٍ من عباده وعُلِمَ حاله الظاهر من الاستقامة والصدق والإخلاص للّه من خلال «معاملاته وعاداته وعباداته» سُلِّم له ما أجرى اللّه على يديه واعتُقِد فيه الصلاحُ وطُلِب منه الدعاءُ، مع عدم الاعتقاد بعصمته ولا بشرط استمرار تكرار كرامته [1].

إن أساس علاقتنا بالكرامة يكمن في ثمرات سلوك أسلافنا الصالحين بحضرموت وغيرها، وهي أيضا علاقتنا بمَن خرق العادة ونُقِل ذلك عنه في الماضي أو الحاضر أو المستقبل على القواعد التالية:

---

(١) عن «شروط الاتصاف» باختصار .

أولا : أن الكرامةَ انفعالٌ يخلقه اللّه تعالى في بعض الظواهر على غير معتادها لتأييدِ حقٍّ أو دَحْضِ باطلٍ على يد عبد من عباد اللّه الصالحين.

ثانيا : ليس كلُّ وليٍّ ذا كرامة، ولا كلُّ ذي خرقٍ لمألوفِ العادة بوليٍّ، وليستِ الكرامةُ – عند أهل السنة والجماعة – شرطاً من شروط الولاية، وإنما أهمُّ شروط الولاية تقوى اللّه.

ثالثا : قد يلتبس على الناس أمرُ الكرامة بالسحر والشعوذة وغيرها، ولا يمكن الفصل بينهما إلا من خلال شواهدِ السلوكِ الذاتي، وشهادةِ أهلِ عصره له بالصلاح والتقوى.

رابعا : ليس من شرط الإيمان أَنْ أُصَدِّقَ بكرامة فلانٍ أو خارقة علاّن، وإنما شرط الإيمان أن لا أُكَذِّبَ بحصول ذلك لمن اتقى اللّه عموما.

خامسا : وجوبُ العلم بأنَّ غالبَ الكراماتِ والحكاياتِ المُثْبَتَةِ في غالب كتب التراجم منقولةٌ بلفظ الرواة وتصرُّفِهم وليست مثبتةً بلفظ الولي ذاته، وهذا من أسباب الإفراط في الوصف وحصول الزيادات التي تَصْرِفُ الحكاياتِ عن حقائقها، وقد تابعنا هذه

الظاهرةَ في بعض كتب التراجم فترجَّح لنا أن كثيراً من الكُتّــاب يُفْرِطُون في مسألةِ حُسْنِ الظَّنِّ، وكذلك في إبراز مقام الشيوخ أمام الأشباه والأنداد فيَزِيدون ويُنْقِصون، ويعظِّمون ويهوِّلون، ولــيس أَدَلَّ على ما ذكرنا هنا مما اعترف به مؤلفُ « الجوهرِ الشفاف »، فأَنْصِتْ وتَدَبَّرْ لما يقوله هذا المؤلف في أول الكتاب (١: ٨) قــال المؤلف :

وقد أُغَيِّرُ بناءَ بعضِ الحكاياتِ، ثُمَّ أَنْظُــرُ إلى معــنى الحكايــة وصورتِها، ثم أُثبِتُها على رَسمِها بما حَسُنَ من البناء، وأَتَكَلَّمَ فيهــا على لسان الحال، ولا أعبأ فيما سبق بزائد اللفظ وناقصه، وسابقه ولاحقه، وأُبدِلُ في بعضها بعضَ الألفاظ ! وحَذَفْتُ الإسنادَ مــن الطبقات الثلاثِ الأُوَل » .

وفي هذا البسط من مؤلف « الجوهر الشفاف » غُنْيَــةٌ كافيــةٌ للاستدلال على ما قررناه من زيادة النَّقَلَةِ والكَتَبَةِ وصرفِ النص في بعض الأحيان بما يُضِيفُونه من الفهم عن حقيقة حال المتكلم به [1].

(١) خُدم « الجوهر الشفاف » بتحقيقٍ للفقير كاتب الترجمة يتناول متابعة الحكايــات وأصولها والأوجه العقلية المناسبة لفهم الكرامات والأحوال المذكورة بما يناســب القاموس العصري وفهم الإنسان المعاصر الذي تشكل عليه مثل هذه الأمور، ولا

وها أنذا أضعُ بين يدي القارئ واحدةً من هذه الحكايات للاستدلال بها على ما ذكرتُ، وللتأكيد أن نسبةَ الطامّات والشَّطحات لبعض الأولياء تأتي غالباً من نقلِ التلاميذ والمريدين وسوءِ تفسيرهم للأقوال .

كتب مؤلف ((الجوهر الشفاف)) في ترجمته للأستاذ الأعظم الفقيه المقدم ((الحكاية الخامسة والثلاثون)):

روى المشايخ رضي اللّه عنهم أن شيخ شيوخنا الفقيه المقدم محمد بن علي رضي اللّه عنه خرج ذات يوم من الأيام إلى شارع من شوارع تريم وكان ذلك الشارع مطروقا، فوقف الشيخ فيه فمَرَّ به بدويٌّ معه جملٌ عليه سعفٌ، فساومه الشيخ في السعف فأبى

زال هذا التحقيق جارياً .

وكان سبب الاهتمام بهذا التحقيق ما يوجد في ((الجوهر الشفاف)) من حكايات وأحوال يقف عندها البعض موقف الحيرة وخاصة أولئك الذين يعتقدون أن السلف يبالغون في وصف أنفسهم وأحوالهم .

وقد لاحظنا أن الكرامات والأحوال على أنماط، منها كرامات يمكن تأويلها، ومنها كرامات يتوقف عندها ويتحقق في نقلها من حيث زيادة المؤلف أو عدم ثقة الناقل، وأنماط أخرى ستظهر إن شاء اللّه عند ظهوره .

البدوي أن يبيع السعف للشيخ بالذي أراد، فقال له الحاضرون: بِعِ السعفَ للشيخ بالذي أراد، فأتى إليه الفقيه الأجل الإمام الأكمل أحمد بن عبد الرحمن أبو علوي وقال له: بِعِ الشيخَ السعفَ بما أراد فإن الشيخ كذا وكذا، وذكر شيئا من مناقب الشيخ، فقال له البدوي : هو الشيخ محمد بن علي اللّه ؟ فلما سمع الشيخُ ذِكْرَ اللّه قال بأعلى صوته : نعم.. أنا اللّه.. وسقط مغشياً عليه .. إلخ .

وهذه الحكايات نقلها « الترياق » وغيرُه[1] لكن كان نقلهم لقول الفقيه «أنا اللّه !» ليست بصفة الاستنكار ولكن بصفة الإقرار، وهذا عكس الواقع لأن الفقيه خرَّ مغشّياً عليه من عِظَمِ الصدمة لَمّا قال البدوي ذلك .

(١) قولنا : « وغيرُه »، إشارةٌ إلى العديد من كتب التراجم « كالغرر » و« شرح العينية » و« المشرع »، فكلهم فَسَّرُوا العبارة بصفة الإقرار وعللوا ذلك بما يليق بمقام الفقيه المقدم، مع العلم أن اللفظةَ وإصابةَ الفقيه بالإغماء ومقامَ الفقيه الواثقِ بربه يُبرز أَنَّ اللفظةَ كانت بصيغة الاستنكار، وهو اللائق حقّاً بمقام عالِمٍ مجتهدٍ يَعْرِفُ مقامات الرجاء والخوف، وهذا الذي يدل عليه سِياقُ العبارة للمتأمل والباحث .

سادسا : شاع في العصور السالفة الاهتمام الكلِّيُّ بتسجيل ورواية الكرامات في التراجم استجابة لمستوى فهم الناس وثقافاتهم ورغباتهم وكانت آنذاك أهمَّ ما يتميز به الوليُّ عند العوام، أما بقية الأعمال والمبرات والأخلاق فيتساوى فيها غالب العلماء والصلحاء، فيتجاوزونها أو يجعلون الكلام عنها عرضاً عابراً فقط، وينتقون من مجمل الحياة أخبار الخوارق كيفما كانت على غير تمحيص ولا تدقيق، وهذا واضح كل الوضوح إذا طالعتَ كتاباً من كتب التراجم القديمة.

فعلى سبيل المثال لا الحصر وخلال جمع مواد هذه الترجمة أَجِدُ كافَّةَ ما بين يدي من تراجم الإمام الفقيه المقدم ترضخ لثقافة الكاتب وعصره، ولا أجدُ أحداً من هؤلاء المترجمين من يعمل الذهن في كافَّة ما يُروى عَنِ الفقيهِ المقدم أو عن غيره ؛ ليجعل من الحكايات والمَرْوِيّاتِ حَدَثاً واقعياً يمكن استيعابه وفهمُه وتعليلُه، إما بشرحِه وتَبْيِينِ غامضِ عباراته، وإما بإرجاعه إلى مستوى القدرة الإلهية الفاعلة في الحدث والمسببة له . والكُتّابُ والمترجمونَ الأوائلُ معذورون في ذلك، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نُخَطِّئَ عملَهم ؛ لأنه ثمرةُ فِقهِهِمْ وعِلْمِهِم ومستوى ثقافةِ عصرهم .

أما ترى أيُّها الأخ القارئ وأنت تقرأ ما أثبتناه هنا مـــن تعليـــلٍ وتحليلٍ وتبسيطٍ لظواهر الكرامةِ والحكايةِ أن في الحياةِ من رجـــال عصرنا وجيلنا من لا يستسيغُ هذا التعليل والتحليل ؟ وإنما يعتـــبره تحريفاً لحقيقةِ ما أَجْمَعَ عليه المترجمون ورضيَهُ الشيوخُ السابقون، وتَرَكُوهُ كما هو للاطلاع دون أن يَمَسُّوهُ بتحليل ولا تعليـــل ولا مناقشة، وهؤلاء القائلين بهذه القول فئـــةٌ لا زالـــتْ تحمـــلُ ذاتَ التَّصَوُّراتِ المَبْنِيَّةِ على سلامة ما رُوِيَ وما كتـــب بلـــسان ذلـــك العصر، وأن الفسادَ كامنٌ في فهم المتأخرينَ وثقافـــاتهم وأســـلوب دراساتهم.

ولهذا السبب وللخروج من هذه المتناقضات بين فكر وقَبولِ جيلٍ دون جيلٍ، حَمَلْنا أقلامَنا لمحاولة الإيـــضاح والتقريـــب حـــسب المستطاع، بحيث يظل احترام الجميع لعباد اللّه الصالحين قائماً دون مَساسِ شخصياتهم وعقائدهم، ومن ثم نرجع إلى التراث ونفهمـــه بلغة عصرنا مقرونا بالاستدلالات والبراهين والتحلـــيلات، ومـــا استعجم من التراث ولم نفهمه نتركُه كما هو ولا نُصْدِرُ به حُكماً على الواصف له ولا الموصوف، لأن هذه الحكاياتِ أخبارٌ وآثـــارٌ يُستفاد من روايتها عندما تكون مفهومةً ومعلومة، وما لم يُفهم منها

يُعرض على الضوابط المذكورة سلفاً، فإن تطابقتْ معهـــا فتلـــك ظاهرةٌ نادرةٌ، وإن لم تتطابق معها فتُتركُ كما هـــي تحـــت دائـــرة الاستفهام، ويُلتفتُ إلى أعمالِ ومجاهداتِ ومَبَرّاتِ أولئك الصالحين، فهي الأصلُ وعليها المعوَّلُ في الاقتداء والاهتداء، وهي أيضاً ضابطُ التمييزِ بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبين الكرامة والـــدَّجَل، وبين انفعال الظواهر لأهل الحق وبين انفعالها لأهل الباطل، وكلاهما لابد في الحياة، وذلك أمرُ اللّه في العباد، وقد جَمَعَ في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بين معجزة النبوة وبـــين اســـتدراج الكاذبين كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح وغيرهم، وفي الوقت الذي كان القرآن ينـــزل على رسول اللّه حقاً وصدقاً كان مسيلمة الكذاب يعلن كذب القرآن والرسالة ويقرئ قومه قرآنـــا آخـــر، ويظهر لهم كراماتٍ مصنعةً بالحيلة والخداع، فكان لمـــسيلمة قـــومٌ وأتباعٌ لم ينقطعوا بموت مسيلمة ولم ينقرضوا، وكان لرسول اللّـــه قوم وأتباع لم تنقطع منهم الكرامات والآيات بموت رســـول اللّـــه صلى اللّه عليه وآله وسلم ولم ينقرضوا[1]، بل بارك اللّه في آثارهم،

---

(١) هذه قاعدة معروفة ومعلومة، فمدرسة التمذهب بالمذاهب على هذه الكيفية مـــن الترابط منذ العصر الأول إلى اليوم، وتقابلها المدرسة الحديثة الداعية لنبذ المذهبية

وحقق فيهم قول ربه: ﴿ إِنّا أَعطيناكَ الكَوثَر. فصَلِّ لِرَبِّكَ وانحرْ . إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبتَر ﴾ صدق اللّه العظيم .

ضوابط الشطحات والعبارات الموهمة

يُتهم الصوفيةُ في عصرنا بأنهم يتجاوزون حد الأدب مع اللّه فيما يصدر عنهم من عبارات وشطحات شعرية ونثرية، ويستدل على ذلك الشطح بقصائد ابن الفارض وكتب ابن عربي وعبارات الحلاج وغيرهم، ومن هذه العبارات والشطحات عمَّم المتأخرون حكم المروق والفساد على مدارس التصوف والصوفية، أينما كانوا وكيفما كانوا، وخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه كتابة الرسائل والمصنفات وصارت توزع مجانا وتنقل من بلاد إلى أخرى.

ونحن في هذه الترجمة قد أوضحنا حدود تناولنا وحديثنا أنه لن يتعدى التعليل والإيضاح لقواعد مدرسة حضرموت، مدرسة الفقيه المقدم، ولكنا في بعض الأحايين لا بد أن نتجاوز هذه القاعدة

ومحاربة الصوفية ومنهج آل البيت النبوي، فلها تسلسل تاريخي عبر الزمان إلى الأصول الأساسية الواضعة قواعد الخلاف، وهكذا .

ونشير إلى تاريخ الاعتدال في التصوف كله، لأن مدرسة الاعتدال تمثل رابطاً واحداً ومنهجاً متشابهاً أمام طرفي الإفــراط والتفــريط، فالشطح والعبارات الموهمــة لم تكــن محــصورة في «التــصوف والصوفية» وإنما شملت عدداً من رجال العلم والحديث والأصــول، فهناك لهم أقوال وأحكام وعبارات في التوحيد والعقائد وفي الفقــه والحديث والجرح والتعديل لا تقل خطرا عن عبارات الــشاطحين من الصوفية .

ومع كل هذا فإن السلف الصالح عالجوا هذه المــسائل برويــة وتعقل ولم يذهبوا مذهب المفرطين الذين حكموا بكفــر بعــض الصوفية الشاطحين ولا بمروق العلماء المُفْرِطِين ولا المفرّطين، فمن أقوال سلفنا الصالح بمدرسة حضرموت حول هذه المسائل يقــول الإمام الحداد يكتب لبعض مريديه :

« لا تعلق خاطرك بالشيخ ابن عربي ولا بأضرابه فــإن ذلــك معجزة، وربما دعا بعضَ الناس إلى الدعوى بما لا يفعلــه، فعليــك بالعلوم الغَزّالِيّة وما جرى مجراها من الصوفيات والفقهيات التي هي

علوم الشرع، وصريح الكتاب والسنة، فثَمَّ السلامةُ والغنيمةُ، واحترِزْ مما سوى ذلك فإنه ربما يشوش على الإنسان سلوكه))[1].

وكتب الشيخ عبد اللّه بن أحمد باسودان في ((فيض الأسرار))[2]: وقد سأل الشيخُ أحمدُ بن عبد القادر الحِفْظِي العجيلي سيدي أحمدَ بن علوي جمل الليل باعلوي نفع اللّه بهما عن ((الفصوص)) لابن عربي، فأجابه رضي اللّه عنه بما نصه : الذي أراه الكَفُّ عن الخوض في الإشارات، وعدم صرف الزمن في فهم تلك العبارات، وذلك لأن الطالب العامل لا يجعل همَّتَه متفرقةً إلى غير جهة الحق المفيض على كل مُقبلٍ عليه صنوف الإحسان، وتلك الرموز والإشارات لا تصلح أن تكون مفيدةً لكل فرد أصالةً، فإن صدورها من الشخص الواحد من أولئك القوم لا يدري على أي وجهة صدرتْ وعلى أي حال جرت على لسانه، بل إن من أجرى اللّه تعالى على لسانه ما ذُكِرَ إذا كان من أرباب الثبات لا يَقِفُ عندَه ولا يعمل بمقتضاه في كل آن ؛ لأن كثيراً ما يخيِّلُ الوهمُ للعارفين صوراً مشتبهةً يقف بسببها في كمال الحياة، وربما ينقطع

---

(١) المكاتبات، مطبوع، (٢: ٢٢-٢٣) .

(٢) ((فيض الأسرار)) للشيخ باسودان، مخطوط، (١: ١٩٧) .

بعضُهم إذا سار معها، فالحزم كل الحزم في إشغال الوقت وعمارته بما برز من مرشد الكل الهادي إلى الصراط المستقيم عليـــه أفـــضل الصلاة والتسليم، من ذكر وتلاوة وتدبر وعبادة مع خشوع وإفادة وإستفادة، والاشتغال بالسنة وتفهم أسرارها على الوجه الذي أرشد إليه صاحبها، ومضى عليه ورثته من بعده)) .

هذا وقد ظهر في مدرسة حضرموت من نُـــسب إليـــه بعـــض الشطحات والأقوال الموهمة، إلا أن هذه الأقوال تعرض على حقيقة حال المتكلم بها، فإن وُجد أن حاله التخليط والتخبيط فالعبارة نِتاجٌ من نِتاجِ خَلطِه وخبطِه، وإن كان حاله الاستقامة وهو مشهود لـــه من أهل عصره بالتقوى والمراقبة للّه والولاية فتعتبر هذه المقولة – إن صحّت عنه – إشكالاً يُؤَوَّلُ عن ظاهره بما يحتمل معنى آخر تسعه العبارة.

وفي هذا المضمار كتب السيد العلامة محمد بن أحمد الـــشاطري في ((أدوار التاريخ)) (٢: ٢٥٥) مـــشيرا إلى انتـــشار التـــصوف بحضرموت وأثره في الحياة الفكرية فقال : ((وهكذا انتشر التصوف بحضرموت فيما بعد – أي : بعد ظهور الفقيه المقـــدم – ولكـــن بصورةٍ مهذَّبةٍ منتقاةٍ وبعيدةٍ عن الغلو ومجانبة الشرع، وبالرغم من

هذا فإنه لم يَخْلُ المطافُ عن شخصياتٍ حضرميةٍ كبيرةٍ نُسِبَ إليها ما يُخالِفُ ظاهرَ الشرع من تبجُّحاتٍ وشطحاتٍ كما نُسِبَ إلى غيرها من صوفية الأقطار الأخرى ؛ ولكن ذلك لم يأتِ عن سوءِ قصدٍ طبعاً لما عُرِفُوا به من مثاليةٍ وإيمانٍ متين، فإذا أُسِيءَ تفسير هذه الشطحات فقد عُذِرَ أصحابُها لأنهم قالوها في حالةِ غيبوبة، ولعلَّ هذا أسلمُ وأحزمُ من أَنْ نَضَعَهُم موقعَ التُّهَمِ والعياذ باللّه))[1].

وإضافة إلى ما ذكره هؤلاء العلماء، فإنه من المعلوم أن ((ظاهرة الشطح والطامات والتبجحات)) لا تمثل في منهج سلفنا الصالح ولا في نهج الفرد منهم قاعدةً ولا تُعَدُّ أصلاً ينبني عليه أمر الاتّباع والاقتداء، وإنما - إن صحت - حالاتٍ طارئةً تعبر عن ذاتها مقرونة بالحال الذي قيلت فيه ((لِذاتِ القائل)) خارجةً عن مألوف علمه وطبعه، ولا يُقاس بهما عقيدته ولا علمه ولا نهجه في السلوك والمعرفة، لأن بعض الأولياء قد يبلغ بهم الحال المترتب على انفعالٍ معينٍ أو غضبٍ أو تحدٍّ أو منافسةِ أضدادٍ أو غير ذلك من مسببات الإثارة الطبعية الشاذة، أو يكون في حالةٍ فرح واستئناس برحمة اللّه، وما يطرأ من الوجد والشوق بعد تمام طاعة أو عبادة فتنزلق من

---

(١) ((أدوار التاريخ)) (٢: ٢٥٥) .

لسانه كلمة أو عبارة توهم الشك في ظاهر لفظها، وتثير الاستغراب عند تأمل معناها، فيثبتها المريدون المتنافسون ويروجون خبرها بين الأنداد والأضداد كعبارة متميزة وذات مدلول خاص، وكان الأولى والأثبت والأسلم أن لا تُروى ولا تُكتب لأنها لا تعد عند «أهل الطريق» فضيلةً أبداً، بل هي ليست «عند أهل الثبات مطلباً ولا غاية».

أوائل تلاميذ الفقيه المقدم

استطاع الأستاذ الأعظم في حياته المباركة بتوفيق اللّه تعالى وعونه أن يبرز منهجه الأخلاقيّ مشفوعاً بالمفهوم الصوفي العالمي المتمثل في مساندة المدرسة الشعيبية المغرّبية، ومدعوما بالاستجابة المحلية التامة من قبل المشايخ القائمين بذات الدعوة في أودية حضرموت وعلى رأسهم الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي، ولم يمر زمن قصير إلا وقد برزت آثار هذه الدعوة المباركة يتصدرها كبار علماء وشيوخ حضرموت، وكان من أبرز الرجال الآخذين منهج العلم الروحي على يد الفقيه المقدم عددٌ من الشيوخ ومنهم:

١- الشيخ العلامة عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن باعباد[١].

---

(١) ترجم له في « طبقات الخواص » بما مثاله مختصرا : كان من أبرز مشايخ حضرموت قدراً وأعظمهم شهرة، صحب في البداية الشريف الصالح محمد بن علـــي بـــاعلوي واستفاد منه واقتبس من علومه، وكان الفقيه يحبه حباً شديداً، ثم رحل إلى الـــشيخ أحمد بن أبي الجعد وأخذ عنه وانتفع به، ولقي الشيخ أبا الغيث بن جميل وغيره مـــن الأكابر وانتفع بهم.

واشتهر كثيرا في البلاد وحتى قصده الناس من نواحٍ شتّى، وتَبِعَه خَلْقٌ كـــثيرٌ حتى إنه قصد مرةً زيارة قبر النبي هود عليه السلام في حوالي ألف وخمسمائة نفس، وكان للشيخ باعباد كلام حسن في التصوف ومكاتبـــات مفيـــدة إلى أصـــحابه وكرامات وأحوال ظاهرة، وكان متباعداً من الدنيا كثير الذم لها، وكـــان ينـــهى أصحابه من الاحتباء حال الأذان لأنها حال دعوة إلى أداء أمر اللّه تعالى، وحقهـــا المبادرة إلى الامتثال وترك التمكن بالجلوس، وكان إذا أراد أن يؤدب بعض أتباعـــه لسوء أدب يصدر منه ألزمه مزيداً من أوراده.

توفي آخر سنة ٦٨٧ ودفن بمقبرة مدينة شبام، وقريته معروفة هناك وله ذرية كبيرة يعرفون إلى اليوم بآل باعباد، ومساكنهم حضرموت . انتهى عن « طبقات الخواص » ص١٧٦-١٧٩ بتصرف وزيادات من المؤلف.

وجاء في «الترياق »أن الفقيه المقدم كان يحب الشيخ عبد اللّه حبـــا جمـــا ويقول: «لو كان الشيخ عبد اللّه قذاه في عيني لما جرحتني» كل ذلك من محبته له ثم من حسن تربيته له.

٢- الشيخ عبد الرحمن بن محمد باعباد[١].

٣- الشيخ عبد اللّه بن إبراهيم قشير[٢]

٤- الشيخ سعيد بن عمر بالحاف[٣].

٥- الشيخ إبراهيم بن يحيى بافضل[٤] .

---

(١) عبد الرحمن محمد باعباد هو أخو الشيخ عبد اللّه وقرينه في الأخذ والطلب والانتفاع بسيدنا الفقيه المقدم، وكان له الانطواء الكامل والمحبة الفائقة حتى نال بذلك المقام الأسنى .

(٢) عبد اللّه بن إبراهيم باقشير من كبار الأئمة العلماء بحضرموت، كان ممن اشتهر بصحبة الفقيه المقدم وانتفع به كثيرا واستفاد منه علما غزيرا، قال فيه الشيخ عبدالرحمن بن عبداللّه بن أسعد اليافعي لما زار قبره : صاحب هذا القبر صاحب لواء يوم القيامة، هذا رجل يباهي اللّه به ملائكته، هذا رجلٌ في وجههِ غُرَّةٌ كوجهِ محمدِ بنِ عبدِاللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم. وكان كثير التبجيل والتعظيم والاحترام لآل البيت النبوي، لما هم من الشرف الطاهر والنسب الفاخر.

(٣) الشيخ سعيد بن عمر بالحاف من أكابر تلاميذ الفقيه المقدم الذي انطوت وشائجهم في وشاجه، وممن انتفع به انتفاعا خاصا وعاما حتى بلغ به المراتب العلية في قدم الطريق وارتبط حاله بحال شيخه حتى كان يراه في أحواله كلها بصور ومقامات ومراتب راقية، أشار إليها كتاب « الترياق » وغيره.

(٤) أحد كبار التلامذة الذين انتفعوا بالأخذ الكامل عن الفقيه المقدم، عاش بتريم وتوفي بها، وكان من الشيوخ الأفاضل الذين كانوا في غاية من الإخبات والقيام بالطاعة للّه تعالى مع كمال الورع والزهد والتواضع. أنفق حياته في سبيل العلم

٦- الشيخ علي بن محمد الخطيب [١] .

٧- الشيخ أحمد بن محمد الخطيب[٢].

٨- الشيخ سعد بن عبد اللّه أكدر[٣] .

والتعليم مع الصبر على شظف العيش، وعرف بفنائه الكامل في محبة أهل البيت النبوي والانطواء فيهم.

(١) من فقهاء وعلماء تريم الأكابر الذين تحدد أخذهم عن الشيوخ وكان فتحه وانطواؤه الكامل في شيخه الفقيه المقدم، وقد أمضى حياته كلها في نشر العلم بتريم متنقلا بين زواياها ومساجدها، عاصر المجالس بالعلوم الفقهية والحديث والصوفية منطرحا كل الانطراح لشيوخه من آل البيت النبوي الذي يأتي في مقدمتهم الإمام الفقيه المقدم.

(٢) من المشايخ الأفاضل، ولد بتريم وتربى فيها، وكان جُلُّ أَخْذِه وانتفاعه على الفقيه المقدم وتخرج به وقضى معظم حياته بعد الفقيه متصدرا في التعليم بمساجد تريم وزواياها مع الغاية في التواضع وحب الخمول والزهد في الدنيا، حتى توفي بتريم ودفن بها.

(٣) من مشايخ العلم الصلحاء الذين عرفتهم تريم ونواحيها، ومن هذا البيت استشهد الشيخان يس وأحمد ابنا سالم بن أبي أكدر في فتنة الزنجيلي سنة ٥٧٦، وقد نشأ الشيخ سعد على غاية من الاجتهاد في طلب العلم وأخذ الطريق على يد شيخه الإمام الفقيه المقدم حتى برز في الطاعات والأوراد وفي العلوم على كثير من أقرانه، وأقامه اللّه حجةً في العلم والعمل وانتفع به خلق كثير، ومع هذا فقد كانت حرفته الخياطة وكان يذكر اللّه مع كل قطعة يخيطها في الثوب، وخاط مرة قميصا، ولما فرغ منه تذكر أن قطعة منه لم يذكر اللّه تعالى عندها فنقض

٩- الشيخ علوي بن الفقيه المقدم.

١٠- الشيخ عبد اللّه ابن الفقيه المقدم.

١١- الشيخ أحمد ابن الفقيه المقدم.

١٢- الشيخ عبد اللّه بن علوي ابن الفقيه المقدم.

١٣- الشيخ أبو بكر بن أحمد ابن الفقيه المقدم.

هؤلاء من طلائع التلاميذ والمريدين الآخذين عن الفقيه إبان حياته وتصديره في تريم، ولم يكن التلاميذ محصورين في هذا العدد المذكور، بل كان المجتمع كله مستجيبا لدعوة الإمام الفقيه المقدم، منتفعا بعلومه، ملتفا حول مدرسته، محبا لشخصيته التي بناها بالصدق مع اللّه والإخلاص في العلم والعمل، واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

خياطة القميص ثم خاطه مرة أخرى وهو يذكر اللّه، توفي في جماد الآخر عام ٧٧١ . انتهى عن ((الجوهر الشفاف)) ص٢٣٨ .

الفقيه المقدم مثال في العلوم وفي الكسب الحلال

كان من أهم مميزات مدرسة الإمام الفقيه المقدم أنها مدرسة جمعت في دعوتها بين شقّي العلم والعمل، وبين التوكل والتعرض للأسباب، وإذ كان المتأخرون قد تشوشت فهومهم عن السلف حيث لم يعرفوا شيئا عن حياتهم العملية، وعن طلبهم للرزق بأسباب الكسب الحلال، فعليهم أن يتأملوا في حقيقة حال هؤلاء الأئمة من أهل البيت في حضرموت وكيف تفردوا في صوفيتهم وفي علومهم وأعمالهم .

وبرغم أن الدعوة إلى الكسب الحلال وبذل الأموال في صنوف أوجه الخير هي ديدن آل البيت منذ عهد الإمام المهاجر[1]، إلا أن الفقيه المقدم رسخ هذا التوجه وأورثه أكابر أهل بيته كي لا يكونوا عالة على أحد من الناس، وفي هذا المضمار كتب السيد صالح الحامد في «تاريخ حضرموت»: إن أجدادنا الصوفية لم يكونوا كما يظن بهم من التخلي عن الأسباب، وترك السعي على العيال،

---

(١) خرج الإمام المهاجر من العراق وهو يحمل معه ثروة طائلة من الذهب، ولما وصل إلى حضرموت اشترى في وادي دوعن عقارا ثم وهبه لأحد مواليه، ثم اشترى غيره ووهبه لآخر وهكذا . عن «تاريخ حضرموت» ص٧١٩ .

بل كانوا بخلاف ذلك، إذ لم يمنعهم التصوف من عمارة أوديتـــهم بالزراعة وغرس النخيل حتى صار في تلك العهود جنانا غنّاء، فقـــد روى الثقاة من المؤرخين أن الأستاذ الفقيه المقدم كان هـــو المثـــل الأعلى في ذلك، كان يرزم – أي : يملأ – من التمر ثلاثمائة وستين زيرا من التمر الفاضل عما يستهلكه أيام الرطب . اهــ[1].

وكانت هذه التمور المخزونة تنفق على الفقراء والمحتاجين وذوي العسرة، حيث كان يتصدق كل يوم بزيد من تلك الأزياد المحفوظة على عدد أيام السنة.

كتب السيد صالح الحامد في ((تاريخه)) : وأما كرمه فحـــدث عنه ولا حرج، فقد واسى من تقدم ودرج، وتقدم في الجود علـــى من مضى وفاقه، وترك الناس بين يديه ذوي فاقـــة، وكانـــت داره مشيدة البناء، رحبة الفناء، تلجأ إليها الأيتام والفقـــراء والأرامـــل، ويفد عليه الراجي والآمل [2].

وكتب السيد محمد بن أحمد الشاطري في ((الأدوار)) ص٢٦٨: وذكرتْ مصادرُ أخرى أن الإمام الفقيه المقدم المتوفى ســـنة ٦٥٣

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص٧٢٦ .

كان يكبس «يرزم »من التمر بعد الاستثمار والصدقة في جِرارٍ مُعَدَّةٍ له ما يُقَدَّرُ بمئة ألفٍ وعشرين ألف رِطلٍ سنويا، ولحفيده الإمام عبد اللّه بن علوي بن الفقيه أطيانٌ وتمورٌ لا تَكاد تحصى، ولا يَدَّخِرُ منها إلا القليلَ لأنه يشرك فيها الفقراء والمعوزين، وقد جمع السيد عمر بن محمد العلوي من ودك الغنم التي كان يرسلها له ثلاثين مَنّاً - والمَنُّ ثمانية وعشرون رطلاً - في شهر واحد، ومن أوقافه على مسجد باعلوي بتريم ما قيمته تسعون ألف دينار ذهبا من الأطيان والنخيل والآبار. انتهى .

ومع هذا الاتساع في الكسب وإنفاقه في سبيل اللّه، فقد كان الفقيه على غاية من التواضع والخمول، حتى أنه كان يحمل السمك في كمه من السوق إلى أهله تواضعا، وكان إذا جاءه ضيف يجلسه على زير التمر ليأكل منه حاجته وليلتمس بركة أيدي المسلمين[١] .

(١) الترياق ٩٢ .

أسرة الفقيه المقدم

تعتبر التربية المنــزلية في منهج التصوف أساس الحياة الأســرية، ومنطلق توجه أفرادها، وكان آل البيت في حــضرموت يعتنــون بالتربية المنــزلية اعتناء تاما، وبها تخرج أئمة الرجــال وصــالحات النساء، وتروي كتب التراجم من هذه المواقف نماذج عديدة كلها تدور حول اهتمام الواقع كله بمسألة التربية، ومن البديهي جداً أن المجتمع الذي تبدأ الأسرة فيه بالتربية يكون المجتمع كله على جانب من التعاضد والتآزر في هذا المضمار، ولهذا يقال عن تريم : ((تريم شيخُ مَن لا له شيخ))، وهذا يدل على انتشار أثر الاهتمام بالتربية من المنــزل إلى الحياة العامة، والفقيه المقدم كان في عصره رجــل التربية الأول، وبتوجيهه ورعايته سار المجتمــع الحــضرمي ســيرة الاقتداء الكامل بالأسوة الحسنة صلى اللّه عليه وآله وسلم، وســار أيضا في هذا المسلك أهل بيته وذووه، فزوجته الصالحة التقية زينب بنت عمه أحمد كانت من أكثر من يليه عوناً له علــى منهجــه في الحياة العامة والخاصة، لقبت بأم الفقراء اقتداء بزينب زوجة الــنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، ولكثرة صدقتها على الفقراء والمساكين،

بل رُشحت من بعده للقيام بكثير من الأمور التي كان الفقيه المقدم يجريها على الناس، وكان الفقيه المقدم هو الذي رشحها في حياته لقوة شخصيتها، ولاستعدادها وكفاءتها، فصار تلامذة الفقيه وزواره يقصدونها للاسترشاد والتبرك والاستشارة، وكانت ترتب النفقات الخاصة بالرباط المنسوب لزوجها بعد وفاته، كما اعتنت في حياة الفقيه بأولاده غاية الاعتناء، تحثهم على الطاعات وتدلهم على ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وتأمرهم بالذهاب إلى المساجد ومرافقة أبيهم في كل مواقع العلم والذكر ومجالس السلوك [1] .

وبهذه التربية الصالحة برز أبناء الفقيه المقدم في حياته على غايةٍ من الاستقامة وحسن السلوك، فابنه الأكبر علوي - وهو الذي يكَنَّى به الفقيه - بلغ مرتبة عظمى في الاهتداء والاقتداء، وكذلك بقية أبناء الفقيه، وهم عبداللّه وأحمد، وقد تزوج كل هؤلاء في حياة والدهم، وأنجب كلٌّ منهم من الأبناء والبنات ما قرت به عين جدهم الفقيه، فالشيخ علوي أنجب عبداللّه وعليا، والشيخ عبداللّه أنجب محمداً وفاطمة، والشيخ أحمد أنجب أبابكر وعلوياً وعمر،

(١) وكانت وفاة الشيخة زينب أم الفقراء يوم السبت ١٢ شوال ٦٩٩ بتريم، ودفنت بمقبرة زنبل رحمها اللّه رحمة الأبرار .

وكان هؤلاء الصغار يدبون خلف آبائهم إلى المسجد يحضرون الصلوات ويقتبسون النور من مواقع الطاعات، حتى صار يطلق عليهم لقب ((حُمَيمات المسجد)) تصغيرا لاسم الحمامات، لكثرة ملازمتهم لآبائهم فيها .

آثار الفقيه المقدم

بنى الفقيه المقدم في حضرموت صرحا من العلم والتربية بناء راسخا متمكنا أساسه الصدق مع الله وبذل المجهود في إصلاح الإنسان وأسباب حياته الدينية والدنيوية ، وهذا من أعظم آثاره التي طبقت بقاع العالم الإنساني كله ، إذ شهدت حضرموت منذ ذلك الحين تحولا واسعا في الحياة الفكرية ، ورست الطريقة العلوية علما وعملا وذوقا متفردة الرؤية متميزة الأهداف ، تبرز في سلوك تلامذة الفقيه ودائرة أتباعه وأبنائه وأسرته الصالحة، كما ترك رباطاً علمياً من أعظم أربطة البلاد حشدا ونفعا وأثرا وتأثيراً كان يحمل اسمه ويدرس منهجه[1] ، كما ترك أراضٍ زراعية جمة فيها من

(١) ورد ذكر هذا الرباط في ((أدوار التاريخ))(٢: ٣٠٨) ، وقال عنه الشاطري في

النخيل والزروع ما لا يحصى يصرف معظمه في ســـبيل المـــصالح العامة[1].

وأما آثاره المكتوبة فلا يُعلم منها الآن شيء إلا ما ورد في كتب التاريخ الحضرمي بلفظ العموم كقول السيد المؤرخ محمد بن أحمد الشاطري في «الأدوار» (٢: ٣٠٢) : وله كتب أخرى في التصوف والحقائق ، وبينه وبين بعض علماء عصره في الخـــارج مراجعـــات ونقود وردود . اهـــ . وزاد الشاطري في الحاشية معلقاً : وكتبـــه خطيةٌ وعزيزةُ الوجود .

ومما بقي من آثار الفقيه المقدم مثبوتاً في كتب الأدعية والأذكار هذا الورد المنسوب إليه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

اللهم انقلنا والمسلمين من الشقاوة إلى السعادة ، ومن النـــار إلى الجنة ، ومن العذاب إلى الرحمة ، ومن الذنوب إلى المغفرة ، ومـــن الإساءة إلى الإحسان ، ومن الخوف إلى الأمان ، ومن الفقـــر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، ومن الإهانة إلى الكرامة ، ومن الضيق

الحاشية : لم تعطنا المصادر تفاصيل عن ذلك الرباط .

(١) المصدر السابق ص٣٠٦ .

إلى السعة ، ومن الشر إلى الخير، ومن العسر إلى اليسر ، ومن الإدبار إلى الإقبال ، ومن السقم إلى الصحة ، ومن السخط إلى الرضى ، ومن الغفلة إلى العبادة ، ومن الفترة إلى الاجتهاد ، ومن الخذلان إلى التوفيق ، ومن البدعة إلى السنة ، ومن الجور إلى العدل.

اللهم أعنّا على ديننا بالدنيا ، وعلى الدنيا بالتقوى ، وعلى التقوى بالعمل، وعلى العمل بالتوفيق ، وعلى جميع ذلك بلطفك المفضي إلى رضاك، المُنْهِي إلى جنتك ، المصحوب ذلك بالنظر إلى وجهك الكريم .

يا اللّه (٣) ، يا رباه (٣) ، يا غوثاه (٣) ، يا أكرم الأكرمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا المواهب العظام ، أستغفر اللّه العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه .

اللهم أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك ، والغُنية عمن سواك . إلهي ، يا لطيف ، يا رزاق ، يا ودود ، يا قوي ، يا متين : أسألك تَأَلُّهاً بك ، واستغراقاً فيك ، ولطفاً شاملاً من لدنك ، ورزقاً واسعاً هنيئا مريئا، وسِنّاً طويلا ، وعملا صالحا في الإيمان واليقين ، وملازمة في الحق

والدين ، وعزا وشرفا يبقى ويتأبد ، لا يشوبه تكبرٌ ولا عُتُــوٌّ ولا فساد ، إنك سميع قريب .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد للّه رب العالمين[١].

وفاة الفقيه المقدم

سارت حياة الفقيه المقدم منذ رفعه لراية الفقر والانكــسار في ذات اللّه سيراً حثيثاً وسريعاً إلى النجاح وبروز الثمرات، فقد كفى نفسه وأبناءه وكافة من يتبعه هم التربص والحذر مــن الأضــداد والحساد، وبدأ رسم طريق البناء الأخلاقي وإصلاح الإنسان مــن داخله بضوابط السلوك العملي في الإسلام، واتسع هــذا المنــهج واستأنس الضدُّ والموافقُ بهذا الاتجاه، وهرع الجميــع إلى حلقــات الإمام الفقيه راضين مطمئــنين، مستــشعرين في عباراتــه المحبــة والإخلاص والصدق والرغبة في إحياء القلوب .

(١) «مخ العبادة» ص٨١ .

ولم يزل الفقيه على هذا المنوال من تأسيس منهجه المبارك مهيئاً جملة تلاميذه وأبنائه ليحملوا هم المنهج والمدرسة من بعده فأقر اللّه عينه بذلك، وامتلأت عينه برؤية العشرات من تلاميــذه وعلــيهم السكينة والأدب والخضوع للّه والانكسار .

وعندما بلغ من العمر مبلغ الشيخوخة أخذته الأحــوال فكــان يغيب إحساسه عما حوله مستغرقا في عالم خاص يسمى عند أهل الطريق بالاصطلام[1]، وكان آخر عهده بالحياة اصطلامه مئة يــوم كامل لا يطعم فيها طعاما ولا يشرب شرابا، وتجري على لــسانه أخبار غريبة وعبارات عجيبة عن الناس وأحوالهم، وشيئا مما سيكون في الحياة، كل ذلك على غير قصد منه ولا شعور .

ولما طال به الأمد على هذه الحالة سقاه بعض أهله شيئاً من لبنٍ كان عندهم رحمةً به وإشفاقاً، فنطق وقال : ((كأنكم ضَجِرتُم مني)) أو كلمة بمعناها، ثم ذكر ربه وفاضت روحه إلى مولاه، وكان ذلك ليلة الجمعة من ليالي ذي الحجة سنة ٦٥٣ .

---

(١) الاصطلام : حالة من حالات الشهود النورانية يغيب فيها الحــس علــى شــكل استغراق روحي يفقد فيه الولي حواسه الظاهرة لغلبة حال أو كثرة ذكر أو طول تأمل في قراءة متدبرة لكتاب اللّه .

وبكاه أهل العصر والمصر، ثم شيع في جنازة مهيبـــة إلى مثـــواه الأخير، رحمه اللّه رحمة الأبرار .

الخاتمة

أيُّها القارئُ الكريم ..

هذا نموذجٌ وضعناه بين يديك من نماذجِ السلفِ الصالحِ الـــذين عاشُوا قدوةً وماتوا وصاروا لأجيالٍ عديـــدة أســـوةً ومثـــالاً، و لم يكونوا كذلك إلا لأنهم صدقوا في حقيقةِ اتِّباعِهِم للمتبوعِ الأعظم صلى اللّه عليه وآله وسلم، رحمهم اللّه رحمة الأبرار .

وغرضُنا في هذا البيان والترجمة ليس مجردَ الكتابةِ عنهم فقـــط ؛ لأن السابقين ما تركوا شيئاً إلا وأتقنوه، وقد كتبوا بِأَلْسِنَةِ عُصورِهم بما فيه الغُنْيَة والكفاية .

ولكنها ضرورةُ الزمان وإلحاحُ العصر ووجوبُ المرحلة أَلْزَمَنا أن نُعيدَ الصياغة ونكتبَ لجيلنا بلسان عصره ما يوضِّح لهم حقيقةَ حالِ السلف، خصوصاً وقد برز في الواقع ما أَنْذَرَ بحصوله في الأمة نبيُّها

صلى اللّه عليه وآله وسلم، وهو أن يكون من علامـــات الـــساعة ((الطعن في السلف)) .

ولا مَزيدَ على ما نسمعُه ونقرؤه من مطاعن، وكفى بما يجـــري آيةً وعلامةً تُنبئ عن صدق النبوة المحمدية، ولهذا ولــذاك جعلنـــا الترجمةَ مُلبِّيَةً لذهنِ قارئ العصر ومستوى علمه وثقافته، ولا نطلب بهذا غيرَ رِضاءِ اللّه تعالى، وخدمةً لرجالٍ صدقوا ما عاهدوا اللّـــه عليه .

جمع هذه الترجمة طلباً لمرضاة اللّه تعالى ورغبة في عفوه ورحمته
وحباً لأوليائه وانتصاراً لأحبابه وشفقةً بالأجيال المخدوعة
من أحفاد الصالحين وأبناء المتقين الفقير إلى عفو مولاه
الغفور أبوبكر العدني ابن علي المشهور
وتم الفراغ من هذه النسخة ٥
ذي الحجة سنة ١٤١٤
بمدينة جدة
المحروسة

الفهرس

المطلع القرآني ٥
الإهداء ٧
شاهد الحال ٩
المقدمة ١١
من هو الفقيه المقدم ؟ ١٣
شيوخه ١٤
ترجمة الشيخ علي بن أحمد بامروان (حاشية) ١٤
ترجمة الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن باعبيد (حاشية) ١٤
الفقيه المقدم والشيخ سعد الظفاري ١٨
الفقيه المقدم والشيخ سفيان اليمني ٢٢
ترجمة الشيخ سفيان اليمني (حاشية) ٢٢
تأسيس المدرسة الصوفية العلوية بحضرموت ٢٥
ظهور المدرسة الصوفية القادرية في المشرق ٢٦
ترجمة الشيخ عبدالقادر الجيلاني (حاشية) ٢٦
ظهور المدرسة الصوفية الشعيبية في المغرب ٢٨
ترجمة الشيخ شعيب أبي مدين (حاشية) ٢٨
الفقيه المقدم والارتباط بالطريقة الشعيبية ٢٩
مبعوث الشيخ شعيب في حضرموت ٣٣
قرار التحول ونتائجه ٣٤
زي الفقراء وكسر السيف ٤٤
نقل عن السيد علي بن حسن العطاس حول كسر السيف ٤٦

(حاشية)
الشيخ سعيد بن عيسى العمودي ٤٨
أهداف الفقيه المقدم في الأخذ بطريق التصوف ٥٠
سبب تسمية الشيخ بالعمودي (حاشية) ٥٢
أسانيد الاتصال ٥٣
استقصاء للأثبات العلوية وكتب علم الإسناد (حاشية) ٥٣
مطلب تحقيق سند الخرقة (حاشية) ٥٨
مدرسة التصوف بحضرموت وضوابطها الشرعية ٦٧
تعليل قرار الفقيه المقدم وأسباب نجاحه في التحول ٧٦
وصف الإمام الحداد لسلسلة التصوف ٧٨
المآخذ المحسوبة على التصوف ٨١
ضوابط طريق التصوف بحضرموت عند الإمام الحداد ٨٥
الضوابط المميزة بين الكرامة للولي والاستدراج للمدعي ٨٧
الكرامات والخوارق ٨٩
ضوابط الشطحات والعبارات الموهمة ٩٧
أوائل تلاميذ الفقيه المقدم ١٠٢
الفقيه المقدم مثال في العلوم وفي الكسب الحلال ١٠٧
أسرة الفقيه المقدم ١١٠
آثار الفقيه المقدم ١١٢
وفاة الفقيه المقدم ١١٥
الخاتمة ١١٧